

رائحة الورد



سنابل للنشر والتوزيع

الإشراف العام:

د. طلعت شاهين

الكتاب: رائحة الورد

المؤلف: منى ماهر طه

الطبعة الأولى: أغسطس ٢٠٠٤

رقم الإيداع: ٢٠٠٤/١٦٠٢٠

التروقيم الدولي: 977-3634-11-3

مدير التحرير:

علي حامد

حقوق الطبع محفوظة

المراسلات:

ص.ب: 22

الحي المتميز - مدينة 6 أكتوبر

جمهورية مصر العربية

Tel.: (+202)8354069

Mob.:0122250787

E-mail:

darсанabil@maktoob.com

تصميم الغلاف: علي حامد

رائحة الورد

قصص قصيرة

منى ماهر طه

سنا بل

للنشر والتوزيع

إهداء

إلى أبي ..

خلقني الله . . منحني روحاً وعقلاً .
وأنت أعددتني للإبداع .

إلى أمي ..

أشياء كثيرة تعلمتها منك وأحتاج إليها :
حب الله . . الصبر . . أن أقول " لا " .

إلى إخوتي ..

كنتم لي خير وأوفى الأصدقاء .

إلى أولادي وزوجي ..

تحملموني كثيراً . . محبتي وامتناني .

الفازة

وحدي في البيت، ليس هناك أحد على الإطلاق، صعدت السلم من البدروم إلى الطابق الأول، حيث الصالون الرئيسي للبيت، فتحت الحجرة الرئيسية، المحراب الرخامي المقدس لسيدتي، لا أستطيع أن أدخله بدونها وتحت إشرافها، حيث يضم أهم التحف من جميع أنحاء العالم.

وقفتُ أمامها، كانت تضعها على طاولة خشبية في وسط الصالون الرخامي تماماً، فازة نادرة، هكذا يطلقون عليها، درت حولها، وفي الطواف الأخير وقفت أتأملها، أريد أن أعرف لماذا هي أغلى مني؟ هل تتنفس؟ هل تشعر؟.. هذه الفازة حديث العائلة ومزار الضيوف الأكبر، قصة شرائها واقتنائها حكاية تُحكى.

جلستُ أمامها على الأرض طبعاً، فمثلي لا تجلس على مقاعد الأكبر حتى لو كانت وحيدة منفردة لا يراها أحد، جلستُ بعيداً عن السجاد، فلا بد أنه نادر مثل الفازة الداكنة، يكفيني شرفاً أنني جلستُ في هذه الغرفة وأمام هذا المزار المقدس، تذكّرت الحجرة المتواضعة التي كنت أعيش فيها قبل انتقالي إلى هذا البيت الفخم، تذكّرت بالتحديد

الركن الضيق الذي كنت أنام فيه ، كان متواضعاً للغاية ، ولكنني هناك كنت أشعر بكرامتي .

كم انهالت الكفوف على وجهي مُهدرة كرامتي بشكل قاس أمام الجميع ، هؤلاء الذين لا يهتمون إلا بالأشياء النادرة ، أُمي عيرتني بكرامتي ، فمثلي عليها أن تنسى كرامتها تماماً ، وأن تتذكر أن خلفها كومة لحم يريدون أن يتنفسوا ويعيشوا ويأكلوا ، بل إن الأكل لأمثالنا رفاهية مطلقة ، أما الكرامة وما على شاكلتها فليست لمثلي ، كلها مصطلحات يجب أن أنساها ، يجب أن أعتاد الضرب والإهانة ، فهذا أمر يومي عادي مثل الأكل والشرب .

أخبرت أبي أنه يلعن كل يوم بل كل ساعة ، ضحك ، وكأن الأمر لا يعنيه ، أخبرني بأن الشتيمة لا تلتصق ، فعلاً لا شيء يلتصق مع أمثالنا ، لا شيء نثور لأجله ، لا شيء ، فنحن لا نمتلك حتى أنفسنا ، نحن ملك للجميع .

كانت لي غرفة صغيرة مستقلة في البدروم ، تحتويني كل مساء ، أذوب فيها مع عرقي وجسدي المنهك ، أبكي فيها وحدي ، أندب حظي ، أسأل الله طريق الرحمة ، أتأمل شكلي الشاحب الباهت ، وهذا الإيشارب الذي يلف رأسي ويطبق على نافوخي فيحدد قدراته ،

وكأنني خلقت به، فهو لا يبارحني ليل نهار، صار جزءاً من تكويني، لم يكن أحد يراني، أنا وحدي أشارك نفسي كل هذا الكم من الأحاسيس المحبطة، أنظر لنفسي في المرآة المكسورة بغرفتي، فأراني ناقصة، جزء كبير مني ضائع، أحياناً كثيرة أتمنى لو لم أخلق أصلاً، أي إحباط هذا الذي عشت داخله وتملكني، لم أجد وسط هذا البشر حضناً يحتويوني، حتى أمي كانت تكيل لي الشتائم، كان ردها على آلامي وتوسلاتي صفعه قوية، تركت آثارها على وجهي، لم تهدر كرامتي بشكل كامل فهي أمي، ولكنها أعادت العقل لي، فرأيت السيدة التي أعمل عندها أطيّب وأرق مخلوقة، ورأيت البيت الذي أعمل فيه ولا أطيعه قطعة من الجنة، وغرفتي المخبوقة في البدروم ذات هواء عليل، حتى الحذاء المقطوع في قدمي رأيتة جديداً يلمع، أدركت أنني مثل البقايا، بقايا الطعام التي يتكونها لآكلها، بقايا الملابس التي أرتديها بعد أن بليت وبطلت موضتها تماماً، بقايا الأحذية التي ألبسها حتى لو لم تكن مقاسي، أنا بقايا إنسانه ضاعت معالمها وتبددت، بهتت ألوانها مثل الإشارات الذي على رأسي.

تعبتُ، لا بد لهذا الجسد المنهك أن يتعب، لا بد لهذه الروح أن تُخلّق، لا بد لهذا العقل أن يحلم، فأنا رغم كل شيء بشر أرى وأشتهي، لست عديمة الإحساس كما يعتقدون، ولكنني أكنتم هذا

وأتناسى أنني بشر، وأتذكر كل يوم أنني خادمة أو حقيرة كما اعتادت سيدتي أن تناديني، أو غبية شديدة الغباء كما يظنون.

أمي أيضاً تعمل خادمة، ولكنها خادمة منذ زمن طويل، تدرت على قتل أحاسيسها، وفي النهاية أجادت. كنت أفكر دوماً في مصيري، فحتى لو تمردت وثررت، لو تزوجت سأعود خادمة مرة أخرى، هذا هو قدري، منه بدأت وإليه أعود، وبدلاً من أن تذهب النقود إلى إخوتي ستذهب لأولادي، من الأفضل أن أبقى بلا زوج، بلا أطفال، لا أريد مزيداً من القيود.

نظرت إلى الفائزة، اقتربت منها، لمستها بيدي، تحسستها، أجل.. نلت هذه المكانة، تساءلت: لماذا هي أعلى مني؟

سؤال شغلني طويلاً، ربما لأن عمرها مئات الأعوام، ربما قيمتها تكمن في خلودها، عرفت.. السر في الخلود، أنا سأموت والفائزة باقية، أنا شيء يُستهلك بمرور الوقت، لا أعتقد أنني سأعيش مئات السنين مثلها. حملتها بين يدي، كم أكره لونها الداكن كما أكره سيدتي تماماً، نفس الكآبة.

ألقيتها على الأرض الرخامية، تهشمت تماماً، تحولت آلاف الجننيات إلى قطع صغيرة، شعرت بالسعادة، حطمت شيئاً أعلى

مني ، لقد صارت لا تساوي شيئاً بينما أنا باقية ، لقد صرتُ الآن أعلى
منها ، فأنا دوماً أعلى من البقايا .

أعرف أن قلب سيدتي سينفطر عليها ، وسيتحول إلى أشلاء تشبه
هذه القطع الصغيرة ، لا يهم ، لطالما أهدرت كرامتي وحوّلتها لشيء لا
قيمة له .

غادرتُ المحراب الرخامي ، حملتُ حقيبةً صغيرة فيها بعض
البقايا ، لست لصة ولن أكون . غادرت المنزل ، هذه المرة بلا عودة ،
لن أعود لأحد ، لقد أعطتني أمي درساً قاسياً ، علمتني أنني بلا
كرامة ، ولو كان الثمن أن أضحي بكرامتي ، فلا بد أن يكون العائد
مجزياً يستحق التضحية . لم أكن أعرف طريقاً واضحاً ، ولكنني
سعيدة ، شعرتُ بالحرية ، فأنا لن أضع على وجهي بعد اليوم ، لن
أقبل بهذا مرة أخرى .

هوية امرأة (*)

لا بد من النهاية، من قرار حاسم لإنهاء هذه الحياة. كنت مشغولة الفكر، شاردة، وأنا أقود سيارتي في اتجاه بيت الأسرة. الأفكار تلاحقني، تتحدث بصوت عال، القرار ليس سهلاً، لم يكن هناك حل آخر، فالوعد لا تُغَيَّر شيئاً، كلها تنتهي نهاية واحدة، إنها مضيعة للوقت وفخ لاستمرار الحياة بلا داع.

كان أنانياً، أراد أن يكون محور الحياة وأن أدور في فلكه، أخبرته دوماً أنني امرأة لا تتجزأ، إما أن يقبلني كما أنا، وإما أن يتركني كما أحبني وأحبيته، تدخل في كل شيء في حياتي؛ عملي، أكلي، أصدقائي، ملابسني، تسريحة شعري، الموسيقى التي أحبها، الألوان التي أعشقها، بل إنه كان يكره أقرب الألوان إلى قلبي، بدأت أتجاهله كنوع من الهروب، كان يحاول تهميشي، وحياة الهامش لا تستهويني، لست امرأة مسيطرة، أبداً، لكنني صاحبة قرار.

بدأت الأشياء تفقد ألوانها ومعالمها، تسربت البرودة إلى حياتنا،

(*) حصلت على الجائزة الأولى من جمعية الكاتبات المصريات للعام ٢٠٠٣م.

فقدنا دفء الحب، كانت بداية النهاية، لم يعد بيننا قاسم مشترك،
تساءلت: لماذا تحاول أن تلغيني؟

بكيت، لم أتمالك نفسي هذه المرة، عندما شاهد دموعي تعجب،
ردد ساخراً: أخيراً بكى تمثال الجليد! تحسست جسدي،
شعرت ببرودته، أكد لي أنني السبب الأول والأخير في تدهور هذه
العلاقة، لم أتقبل اللوم، كان يقلب الحقائق رأساً على عقب، لاحقته
بنظراتي، التقت عيوننا، كانت باردة، أدركت أن الحب الكبير الذي
كان يسكننا قد رحل، رحل بلا عودة، ألقيت عليه اللوم، أنت
وحدك من دفعني بل دفعنا نحو هذا، أنت من بدأ النهاية، تلاشت
الأشياء المشتركة بيننا، صرنا كائنين بعيدين كل البعد عن الآخر،
نتخاطب بالكاد، نفضل دوماً أن نكون في صحبة الأصدقاء، أما نحن
معاً، فنجلس بلا حوار وبلا اتصال.

لم أعد أعرف كيف يراني، جسداً بلا روح، يمكن تغيير ملامحه
وهويته، أم روحاً وعقلاً وكياناً وفكراً محاطاً بجسد. إن الحياة معه
عطاء من جانب واحد، والعطاء المتبادل في الحب سر البقاء، لقد
فقدنا أغلى ما يربطنا معاً، صار استمرار الحياة مسرحية كوميدية
مضحكة، يصفق لها الناس وهم لا يعرفون أن الأبطال يكون حتى
الشمالة من شدة الألم.

نزعت القيد الذهبي عن إصبعي ، ألقيت به أمامه ، رن صوته على الطاولة الزجاجية الأنيقة ، سمعت صوت الرنين كأنه ضحكات عالية تسخر من عمري الذي مضى . غادرت المنزل ، لم يلحق بي ، يعرف أن قراراتي حاسمة لا تتغير بسهولة .

كان الطريق طويلاً ، سلكت أبعد الطرق وأكثرها ازدحاماً ، كان صوت الكاسيت عالياً ، لكنني لا أسمع شيئاً ، فالصوت بلا كلمات ، والكلمات بلا معنى ، والنغم ممل رتيب .

نظرت إلى نفسي في المرآة ، توسلت إليها أن لا تبكي ، عدلت شعري ، تذكرت صديقتي الغالية حتى أسلي نفسي ، جمع الحب الكبير بينها وبين زوجها ، أنجبت ولداً ، كان لزوجها صديقة في العمل ، " ليز " ما زلت أذكرها ، كانت تزورها دوماً ، وصديقتي الغالية لا تمنع من هذه الزيارات المتكررة ، فثقتها في نفسها وزوجها تصل إلى أبعد الحدود ، في عيد ميلاد ابن صديقتي الغالية ، أهدت إليه " ليز " كلباً غالي الثمن من نوع نادر ، تعلق به الصغير كثيراً ، أصبح الكلب يلازمه في كل مكان يذهب إليه ، وتناست صديقتي أن كل شيء لا بد له من مقابل ، خصوصاً الهدايا النادرة ، ولقد حصلت " ليز " على المقابل ، أخذت الزوج ورحلت ، وبمنتهى البساطة حصلت صديقتي

على الطلاق والكلب النادر، كانت صديقتي تكره الكلب، فرغم أنه لا ذنب له، إلا أنه كان يُذكرها بليز.

رحل الزوج، ومن أجل عيون الصغير، بقي لليز أذبال في البيت. بعد فترة تزوجت صديقتي الغالية، وصار الصغير يحمل الكلب بين ذراعيه، مرة في بيت أمه، وتارة في بيت " ليز " .

نظرتُ إلى المرأة مرة أخرى، تأملت ملامحي، لم أخسر كثيراً، خسرت رجلاً كل ما قدمه لي طوق ذهبي أنيق وقطعة ماس وشقة فاخرة، عطاء مادي بحت، يتأرجح بين الصعود والهبوط، كان لا بد لهذه القيود أن تنكسر وتتحطم، فالمادة لا تأسر عقلاً حراً ولا تمتلك شخصية تتسم بالثبات.

خسرتُ حباً أسرنِي، ولكنني كسبت نفسي، استعادت روحي حريتها التي كادت تُسلب منها، خسرت زواجي، ولكنني كسبت هويتي كامرأة.

عدتُ إلى بيت أبي وأمي، كان الجميع يسأل عن تفسير، فالقرار مفاجئ بالنسبة لهم، كنتُ متعبة، طلبت فرصة، احترموا رغبتني.

دخلت غرفتي، بكيتُ كثيراً، دموعي لا تريد أن تتوقف، يجب أن أكون قوية متماسكة، مُصرّة على رأيي، وأن أقدم أسباباً كافية

ومقنعة، فأنا لا أحب الجدل رغم أنني سألقاه.

اليوم كان قراري وأعرف أنه لا بد من رد فعل، عرفت أمراً آخر،
أعتقد بأنني لن أقبل في البيت كلباً لا أرغب في وجوده، فأنا ما زلت
بلا أطفال.

نبات الظل

غرفة عتيقة بكل ما فيها؛ تصميمها، أخشابها، سجادها العجمي القديم، سريرها ذو الأعمدة، مصباحها المعلق في السقف . . عندما أدخل غرفة جدتي أشم عبقاً فريداً قديماً، وأنا عاشقة متيمة بكل ما هو عتيق، قديم في عمر جدتي .

أعشق حكاياتها القديمة، إنها مثل التاريخ تستفيد منه كلما عرفته أكثر وكلما أبحرت فيه، فالقدم يزيد من قيمة الأشياء ويرفع أثمانها .

بعد رحيل أبي ثم أمي، عشتُ مع جدتي، لم يكن لي سواها، وهي تستحق كل الحب، جديرة بالقرب، كانت أمي الفتاة الوحيدة لها بالإضافة إلى ولدين آخرين، لم يكونا يزورانها كثيراً، لم تكن تكثرث، قالت لي يوماً: أولادي تشغلهم همومهم . . وترعاهم زوجاتهم . . جذورهم في بيتي ولكن امتدادهم خارج النافذة . . أسقيهم . . أمنحهم الحياة . . ولكنني لا أستفيد بظلمهم ولا عطرهم . . الظل يا صغيرتي القريبة للزوجة ولأولادهم .

حكاياتها لا تنتهي، تاريخ لا ينقطع، حدثتني كثيراً عن أختها الوحيدة الراحلة، وكيف عاندت قوانين الميراث زوجة أبيها الراحل .

قالت : تزوجت أختي مرتين . . في المرة الأولى رحل الزوج
- فجأة - وترك خلفه أختي أرملة وحيدة بلا أطفال . . وثروة جيدة . .
تزوجت للمرة الثانية طمعاً في أمومة تمنحها الخلود . . لم يتحقق لها ما
أرادت - رحلت فجأة - وتركت خلفها زوجاً وحيداً بلا أطفال ، وثروة
جيدة . . حسب قوانين الميراث ذهبت الثروة كلها لي ولزوجها
مناصفة . . أما شقيقي الوحيد من أبي الراحل . . فلم يأخذ شيئاً .
سكتت وكأنها تتذكر أمراً ما . .

: تزوج أبي قبل موته من فتاة في عمر الربيع . . اجتمع الربيع
بالخريف من أجل عيون طفل ذكر . . رحل الخريف قبل أن يرى حلمه
النور . . وعندما أدركت زوجة أبي أن طفلها الذكر لن يرث شيئاً من
ثروة أختي الراحلة . . تحولت إلى رياح عاتية . . حملت الحلم الرضيع
ورحلت . . اختفت . . ما زال أخي في عيني طفلاً رضيعاً .

سكتت لحظة ، ابتسمت : لو أنجبت زوجة أبي الحسناء فتاة
لحصدت السدس من الثروة . . البنات في عائلتنا دائماً يكسبن .

كانت جدتي تعتنى بنبات ظل صغير لا يغادر غرفتها ، تحبه
كثيراً ، تمنحه وقتها ، تحكي له ، تبوح بأسرارها ، فهو في رأي جدتي
روح حية ، يشعر ، يفرح ويحزن ، يزهر ويذبل . وضعتته قريباً من

سريرتها، قالت لي يوماً: هذا النبات طويل العمر . . معطاء . . كل ما يحتاج إليه القليل من الماء فيمنح عطراً يملأ المكان .

رحلت جدتي الغالية وتركتني، قبل أن ترحل أوصتني كثيراً بنبات الظل، كلماتها لا أنساها: اهتمي بالنبات كثيراً . . إياك أن تفرطي فيه مهما حدث . . فلقد كان سري . . امنحيه أسرارك . . لا تخافي . . فهو وفي مثلك تماماً . . كتوم . . إذا منحك سرّاً، إياك أن تبوح به .

بعد رحيلها باع أولادها كل شيء؛ البيت الكبير، أثاث غرفتها العتيق، سجدها العجيب القديم، مجوهراتها النادرة، ذكرياتها الغالية - باعوها - باعوا جدتي .

أغلقتوا بابها إلى الأبد، ذهبت هي وبقي الأحياء يتحكمون في كل ما يخص الأموات، بل يمسخون أحياناً ما تركوه من ذكرى .

عدت إلى شقة أبي وأمي، كل شيء كما هو، لم أغير شيئاً فأنا أحترم الذكرى، وأعرف أن هذا البيت عاش فيه الحب أعواماً طويلة، لم أنسهم يوماً .

أضفت إلى البيت بعضاً من ذكريات الجددة، حملت معي نبات الظل الغالي، رائحة الجددة وعطرها الباقي، حملت صورها، قطعاً من

أثائها القديم يحمل العتاقة التي أعشقتها، ما حصلت عليه كان بالنسبة لي كل شيء .

علقت الصور على الحائط، تأملتها، كم هي جميلة، لن أحركها أبداً، ستبقين يا جدتي الحبيبة، من يحترم الذكريات لابد أن يلتقي بمن يحترم ذكراه .

عملي مهندسة ديكور يستغرق وقتي صباحاً، والليل ملك للذكريات . وضعت النبات إلى جوار سريري، وجدنتني أبوح له كل ليلة، يحمل أسراري، يحمل أحزاني وحنيني إلى جدتي، أتحسس أوراقه، أقبلها وكأنني أقبل يد جدتي، فلقد لامست أصابعها هذه الأوراق من قبل . رغم قسوة الذكريات أحياناً، كان ينتظرنني، تمنحه ألامك، فيمنحك عطراً هادئاً رائعاً يملأ المكان، دائماً يمنح الأفضل، إنه الشيء الوحيد الوفي الباقي من الجدة، أخذوا كل شيء، وتركوا أغلى شيء، إنهم لا يقدرّون الوفاء .

ما هذا ! ورقة صفراء ! علامة الحزن ورمز الرحيل، لابد أنني أنقلت عليك، لو كنت تبوح لقلت الكثير، لابد أن أنقله إلى وعاء أكبر لكي أتيح للجذور المزيد من الامتداد، اشترت وعاءً جميلاً يليق به، أخرجته بحرص شديد، وبينما أنا أنقله من مكانه، اصطدمت أصابعي بشيء صلب، ما هذا !؟

أمسكته بين يدي وأنا لا أصدق ! إنه هو ، خاتم جدتي الماسي ،
حجر كبير عتيق من الماس الحر ، كم كنت أعشق هذا الخاتم ، أخبرتنا
الجددة إنها باعته ، ولكنها أهدته لنبات الظل ، هذا النبات الذي لم يهتم
به أحد سواي ، لقد باح النبات بسر ، أعطته الجدة شيئاً فرده لي ، أدرك
أنني أحبه كما أحبته جدتي من قبل ، كان كريماً معي ، أهديته حباً
صادقاً ، فأهداني الماس ، احتفظ بالماس لقلب وفي .

قَبَلْتُ أوراقه ، وشكرت هديته ، أدركت أنه يشعر بي ومجدثني
همساً ، سمعته ، شكراً يا نبات الظل ، منحتني سرّاً ، وكما أوصتني
جدتي ؛ لن أبوح بأسرارك أبداً .

ورق برائحة الورد

وقف يستقبل العزاء بابتسامة باردة منكسرة، هذا هو تعبيره عن الألم، كان الجميع في السرادق الفخم يتغامزون من حوله: هل رأيتم ابتسامته! لقد أصبح بارداً.. غلفته أوروبا بجليدها الأبيض.. لا يشعر بالحزن على والده.. لقد علمته الغربية القسوة البالغة.

شعر بالتعب، جلس، طلب من الجرسون الذي يتحرك بسرعة مذهلة في السرادق كوباً من الليمون البارد، انصرف الجرسون متعجباً! أسند رأسه إلى الخلف، أغمض عينيه، استدعى النوم ولو للحظات برجاء العاشق الولهان، ولكن هيهات أن ينام وسط هذا الزحام الهائل، رحل النوم ولكنه لم يفتح عينيه، أطلق لذاكرته العنان وكأنه لم يجلس وحيداً منفرداً منذ زمن طويل، موت والده المفاجئ أثار في نفسه الكثير من الشجن، كان متعلقاً به رغم أنه عانى كثيراً من انفصاله عن والدته وهو في العاشرة من عمره، قال له والده يومها: عندما تكبر ستعرف لماذا هجرت البيت وهجرتك.. ستعرف كم أعاني.. لا بد أن يأتي اليوم الذي تدرك فيه الحقائق.

تذكر والدته، امرأة قوية وجميلة، سيدة أعمال من طراز نادر، استطاعت بأموال والده أن تصنع من محل الأزهار الذي تمتلكه إمبراطورية لها فروعها في كل مكان، كانت تعشق طموحها الجامح أكثر من عشقها لأي شيء آخر، وكان لها ما أرادت دوماً .

عندما كان في بداية الشباب، كان يقف معها في محل أزهارها، علمه التعامل مع الأزهار الرقة والنعومة، تعلم فن الابتسامة، فمن يعرف الأزهار لا يعرف الحزن، لا تفارقه الابتسامة طوال اليوم، فالزهرة كائن تبتسم حين تلمسه، رغم أنه يموت بين يديك .

عالم والدته كان عالماً مُحاطاً بالمجاملات والابتسامات الملونة، عالماً وردياً بلون أزهارها، كانت امرأة مسيطرة، حين كبر أدرك أن هذه السيطرة كانت سبب الانفصال .

ترك والده البيت وأقام في مكان آخر، لم يشغل والدته طلب الطلاق، انغمست في عالمها الساحر، أحاطت نفسها بالأزهار والخضرة، عزلها هذا السياج الوردي تماماً عن العالم الآخر، ودون أن تشعر عزلها حتى عن وحيدها، كان مُحاطاً بها، ولكن الاهتمام لا يعني أبداً - بالنسبة له - الحب .

كانت أمه تعامله برقة متناهية، وكأنه زهرة صغيرة تخاف على

أوراقها من الهواء ، حين قرر له والده أن يدرس هندسة الميكانيكا لكي يدير مصانعه ، رفضت أمه ، قالت بتحد وهي تشعل سيجارتها برقة بالغة : لا . . إنها كلية عملية للغاية . . ستقتل في ابني الرقيق روح الإبداع .

ثار والده ، هدد بأنه لن يتفق عليه إلا إذا درس الهندسة ، عارضته الأم ، كانت تعشق المعارضة ، وجهت كلامها إلى الأب وفي يدها سيجارتها التي لا تفارقها : دع الولد يفعل ما يجب . . لا تمل عليه أفكارك الحمقاء . . لا أريده أن يكون مثلك . . حياتك أوراق . لها تحيا ومن أجلها وجدت . . أريد أن تعرف أمراً مهماً . . ما بينك وبين وحيدك جسر من ورق . . وحيدك رجل من ورق أخضر ولكن ورق براءة الورد .

ما زال يذكر كلمات أبيه لها : هذا الورق صنع لك أحلامك . . منحتك أوراقني لأنني أحببتك . . وكما كرهتك كرهت كل النساء . . وكما صنعت أحلامك سأصنع أحلامي .

استجاب لوالده رغم كرهه الشديد للهندسة وفروعها ، استجاب له فقط لأنه يحبه ، لأنه أراد أن يحقق له حلمه ، سافر إلى أمريكا لدراسة الهندسة ، حاول جاهداً أن يجبها ، ولكنه فشل في تقبلها ، كان لا يتقبل

إلا ما يجب، درس الإخراج السينمائي، كان يرى في هذا العالم سحراً لا يُقاوم، انتقل من عالم الأوراق إلى حياة السينما الصاخبة، كان عالماً جديداً مختلفاً ولكنه كان يحبه، بعد فترة، أصبح جزءاً من هذا العالم الذي عاشه بكل تناقضاته، تعلم حياة الأضواء الصاخبة، تعلم أن يتصنع في أحاسيسه، أن يُظهر عكس ما يبطن، أن يضحك حين يشعر بالألم، وأن يبكي وقت الفرح، عاش عكس حقيقته، ورغم انغماسه في هذا العالم، فإن ابتسامة الأزهار لم تفارق وجهه أبداً.

اشتعل قلبه بالحب أكثر من مرة ولكنه تزوج مرة واحدة، تزوج من صاحبة أجمل ابتسامة رآها على الإطلاق، شعر إنها الشيء الوحيد الصادق في حياته الزائفة، تزوجها رغم معارضة والدته، التي كانت تريد له زواجاً يضيف إليها أزهاراً، ويضيف إلى أبيه أوراقاً، لكنه أصر عليها.

في بداية الطريق أنجبت له "وحيد"، أصر على هذا الاسم، رأى أنه يُعبّر عنه، في منتصف الطريق رآها امرأة مُصرة على رأيها، مسيطرة، مثل أمه تماماً، رغم أنها في واقع الأمر كانت بعيدة كل البعد عن أمه، ولكنه لم يستطع أن يمنع هذا الإحساس من السيطرة عليه، وكان الانفصال في النهاية، ما زال يتذكر كلماتها الأخيرة: أنت مثل

ورقة في مهب الريح . . تتأثر بكل شيء حولك . . ليس لك شخصية محددة . . أو طريق ثابت . . كل يوم في مكان مختلف . . بل كل لحظة في موقع آخر . . لم تكن معي أبداً .

تألم كثيراً من الطلاق، تألم من أجل وحيدته، لا يريد له المصير المشتت نفسه الذي عاشه، بدأ يشعر أنه مُسير لا مُخير، حين أصر على الطلاق لم يكن يرغب حقاً في حدوثه، ولكنه حدث، وحين حدث أرسلت إليه أمه أزهاراً، وأرسل إليه والده أموالاً لكي تساعده على الاستجمام .

انخرط في عمله، أنتج فيلماً كبيراً تكلف الكثير، حقق له النجاح والشهرة، فتح له الأبواب التي كان يحلم بها، والتي من أجلها اقتحم هذا العالم الساحر، لقد حقق له هذا النجاح المزيد من النقود والأزهار، نجح في عمله لأنه تعلم من أمه وأبيه أن يعشق عمله إلى حد العبادة، لكنه فشل في حياته الخاصة، لأنه لم يتعلم أن تكون له حياة خاصة يحترمها، عاش مشتتاً بين أم تعشق نفسها وأب رافض لها رغم أنه يحبها، لم يعرف معنى الاستقرار، ولذلك لم يمنحه لوحيدته .

لم يكرر تجربة الزواج، كان يشعر بأن الفشل سيلازمه دوماً في هذه التجربة بالذات، أدرك تماماً أنه لن ينجح يوماً في تكوين أسرة،

لن يعطي ما فقدته طوال رحلته .

حاول أن يبحث عن طريق له ملامح أخرى ، شعر بالاشتياق
لأبيه ، كان يرى أنه يسير الخطوات نفسها ولكن في زمن آخر ، حين
قرر العودة لرؤية أبيه كان قد رحل .

فتح عينيه ، ما زال في السرادق الفخم ، ينتظر كوب الليمون
البارد .

كعب عال

تلقيت الدعوة، كان حفلاً مهماً لابد من حضوره، قرأت الدعوة الأنيقة، إنها موجهة لي ولزوجي، شعرت بسعادة، كم تمنيت أن يكون معي، أن ألتقي معه - يدي في يده - بكل زملاء العمل الذين لا يعرفهم، ولم يلتق بهم من قبل.

أخبرته بأمر الحفل، وبأنني أتمنى وجوده، وعدني بالحضور، وفي الموعد الذي حددته له حضر بالفعل.

كان الحفل في دار الأوبرا، بالنسبة لي كانت دعوة عمل ولكنها من نوع مختلف، فأنا لن أرتدي ملابس المعتادة التي أرتديها كل يوم في العمل، أريد أن أكون مختلفة، أن يراني الجميع بصورة أخرى، صورة لم يعتدها أحد.

نظرت طويلاً في مرآتي، رفعت شعري بشكل لائق، مكياج زائد بعض الشيء، ملابسني تناسب تماماً جو الحفل وتناسب شخصيتي المتحفظة، وضعت عطراً مميزاً. يناسبني.

خرجت إليه، كان ينتظرني، لم ألفت انتباهه، لم يعلق على مظهري، لم أرني في عينيه شيئاً مختلفاً، غادرنا البيت، كان الطريق

طويلاً، صوت الكاسيت لا يعلو عليه صوت آخر، حاولت أن أتكلم، أن أخلق حواراً ما، ولكن إجابته كانت مختصرة للغاية، اغتالت كل محاولاتي .

وصلنا متأخرين، غادرنا السيارة، كان يسير بسرعة، حاولت اللحاق به، الكعب العالي الذي لم أعتده كان عائقاً، قلل من سرعتي وثبات خطوتي، فكان هو الأسرع .

شعرت بأنني أسير وحدي، وأن كلا منا يخطو في الطريق نفسه ولكن بعيداً عن الآخر .

كانت الحفلة قد بدأت، دخلت دون أن يراني أحد، اختار هو مكاناً بعيداً لكي نجلس فيه، رفض اقتراحي الهامس أن نجلس قريباً من المسرح، جلست إلى جواره، حاولت أن أضع ساقاً على ساق - كعادتي - ولكن المساحة كانت ضيقة للغاية، استدرت قليلاً حتى أتمكن من الجلوس في الوضع الذي اعتدته، وأخيراً سمعت صوته واضحاً بعيداً عن الإشارات والهمهمة : لماذا تديرين ظهرك لي ؟

تعجبت . . ! حاولت أن أبرر له، أن أخبره أنني بهذه الطريقة سأتمكن من رؤية المسرح بوضوح، أدار وجهه دون أن يوجه لي كلمة أخرى .

انتهى الحفل سريعاً، نهض، أصر على أن يغادر فوراً قبل الزحام، أخبرته أنني لم أر أحداً من زملاء بعد، وأني أرغب في أن ألتقي بهم لإثبات وجودي وتأكيدي حضورني إلى هذا الحفل، ولكنه رفض أن ألتقي بأحد، رفض أن يشاركني شيئاً خاصاً بي .

غادرت معه، أبدت عدم اهتمامي رغم ضيقي الشديد منه، لا أريده أن يكسب جولة على حساب مشاعري، كان يتحرك بسرعة، السرعة نفسها التي جاء بها، حاولت اللحاق به، ولكنها المسافة نفسها، البعد نفسه الذي حاولت أن ألغيه، لم يترك لي مساحة للنقاش ولا حتى فرصة للحاق به، سار بعيداً وبسرعة، لم أكن أسمع وأنا أخطو سريعاً نحوه سوى دقات الكعب العالي، التي تُعبّر عن سرعتي وفشلي في اللحاق به .

كان طريق العودة طويلاً، وصوت الكاسيت لا يعلو عليه صوت آخر، حاولت أن أتكلم، ولكن دموعي كانت أسرع من كلماتي؛ ففضّلت السكوت .

في الخامسة تماماً

كنا نجلس معاً في مكاننا المعتاد، نراقب الوجوه المتغيرة من حولنا، نسترجع الذكريات؛ الدراسة، صداقة الجامعة، الزواج، الأمومة، وأخيراً الطلاق، أنا ما زلت زوجة، أما هي فلا، حصلت على الطلاق حديثاً، ما زالت في العدة.

انقطعت ابتسامتها فجأة، شاهدت بصرها يتجه نحو شيء ما ويتوقف، بدأت أشعر بها ترتبك، تتحرك بعصبية ملحوظة، ترتجف بخفة شديدة، نظرت اتجاه عينيها، كان هو، زوجها السابق بصحبة امرأة أخرى، عندما رآها غادر المكان، رفض البقاء.

حاولت أن أتجاهل الموقف، ولكن من الصعب تجاهل ارتباكها وعينها التي تبدل الضحك فيها إلى غيوم توشك أن تمطر، تعرف جيداً أنني رأيت، وتدرك محاولاتي الفاشلة في تجاهل الموقف، خرجت كلماتها حزينة سوداء، أخبرتني عن قسوة الإحساس الذي يسكنها، إحساس رهيب بالفشل، بأنه رفضها، رفض وجودها في حياته، وما زال يرفض، عندما رآها غادر مسرعاً، رفض أن يبقى معها في المكان

نفسه ، حتى ولو عن بعد ، حاولت أن أهون الأمور ، أخبرتها أن الطلاق كان قراراً مشتركاً ، كلاهما سعى له ، كلاهما كان يريد ، قاطعتني ، قالت سريعاً وبلا تفكير :

— لم يكن قراراً مشتركاً . . كان قراره هو . . أنا لم أتعلم أن أصنع قراراتي أبداً . . لم أتعلم أن أرهق عقلي بالتفكير . . تعودت منذ الصغر أن تكون طلباتي مُجابهة . . لم تكن في حياتي أي معاناة . . معاناتي أن يقول لي أحدهم : لا . . لم أكن أعرف معنى هذه الكلمة . . لم يلعب الرفض أي دور في حياتي . . كل شيء كان سهلاً . . لم أدرك أن هذه السهولة ستقضي على حياتي يوماً ما . . المعاناة لم تعرف الطريق لي إطلاقاً . . دراسة موفقة . . جامعة كنت أرغب في دخولها . . زواج مرموق . . ولد و بنت . . لم تترك لي الدنيا شيئاً أتمناه أو شيئاً أسعى إليه . .

حياة بلا معاناة لا تصنع بشراً . . أنا لا أتحدث عن المعاناة الشديدة التي تقهر النفس ، ولكنني أتحدث عن المعاناة التي تخلقنا . . المعاناة التي تجعلنا نتمنى ونتعلم قيمة الأحلام ، وكيف ننالها . . لم أشعر يوماً أن زوجي يعاني في حياته معي . . لم أشعر أن هناك خطأ ما يجب إصلاحه . . لم ألمس أنني مملّة . . وأن مللي يجعلني أفقد من حولي . .

لم ألاحظ اختفاء الأصدقاء . . لم أشعر بهم . . اعتقدت أن ظهورهم
واختفاءهم مجرد صدفة . . حتى أولادي كانوا يشعرون أنني لا أمنحهم
ما يبحثون عنه . . كنت زوجة عادية للغاية . . وأماً تقليدية جداً في
زمن غير تقليدي . . بمرور الوقت نصينا الأشياء الثابتة بالملل . . وأنا
أرفض التغيير . .

أماكن الأشياء في بيتي وفي حياتي لا تتغير أبداً . . أنا غير مؤثرة في
حياة من حولي . . أمر دون أن يشعر بي أحد . . أفعل نفس
الأشياء . . أقول كلاماً واحداً في المواقف المتشابهة . .

كلماتي مكررة . . رحل زوجي بلا ندم . . ملّ حياتي . . هل رأيت
المرأة التي معه ؟ جديدة . .

جديدة في كل شيء . . ملابسها . . شعرها . . كل شيء مختلف
عني . . لقد جدد حياته . . وأنا ما زلت كما أنا . . الصورة القديمة
نفسها . . أبيض وأسود .

حاولت أن أتغير ، ولكن للأسف بدأت متأخرة . . محاولة التغيير
جعلتني أكتشف من حولي . . أعرف أنهم لا يريدون حياتي . . كنت
قد بدأت ، ولكنهم رفضوا رؤيتي . . أغمضوا عيونهم . .

أعرف أن التجديد يمنحنا طاقة لا حدود لها . . يعود بأعمارنا إلى

الوراء، وهذا ما نشأتق إليه عندما يمضي بنا الزمن . . قبلت الطلاق
رغم الألم . . رغم أنني كنت رافضة له . . قبولي كان نوعاً من
التجديد .

أقبل الجرسون ووضع أمامها كوباً من الشاي : إنها الخامسة تماماً .
توقفتُ عن الكلام، نظرتُ في ساعتها، إنها الخامسة تماماً، شاي
الخامسة من بقايا عهدنا القديم، موعد ثابت لا يقبل التغيير، نظرت
نحو الجرسون، رددت بثقة :
- لا أريده .

الرقم الأخير

قبل أن أذهب إليه ، عرفت أنه يبدل النساء في حياته كما يبدل
ملابسه ، تغيير يحدث طيلة الوقت ، ولكن لا بد من الذهاب إليه ،
ظروف العمل تتطلب هذا ، فرغم جمالي الهادئ ، فإنني أتجاهل تماماً
لغة الجسد ، إنني شخصية قوية ، ثابتة ، والأهم جادة ، ولهذا رشحوني
لهذه المهمة .

كان اللقاء الأول سهلاً ، سريعاً ، عابراً ، كنت كعادتي جادة ، بل
أكثر جدية من المعتاد ، كسبت احترامه منذ اللقاء الأول ، فهو رجل
يعامل كل امرأة كما تحب أن تعامل .

في اللقاء الثاني كسبت شيئاً آخر ، كسبت صداقته .

في اللقاء الثالث كانت كلماته أكثر رقة ، بل أكثر حرصاً ، فلقد
حركت داخلي بركاناً ساكناً منذ زمن ، كنت في الظاهر هادئة غير
مبالية ، ولكن البركان كان قد بدأ في الحركة ، حركة أذابت الحواجز
بيني وبينه ، فعبرت ولكن بحذر .

في البيت كنت أفكر فيه كثيراً، أعطاني رقم تليفونه الخاص، قاومت، كنت أدير القرص وأهرب عند الرقم الأخير، ولكنني بدأت أشعر بميل غريب نحوه، بدأت أشعر بالحاجة إلى حب يملأ حياتي، وبدأت لا أهرب عند الرقم الأخير.

في البداية أسرني صوته، وامتلكني حديثه العذب، ثم بدأت ألقاه، أضاف إليّ معانٍ عن الحب كنت أحتاج إليها، غيرني، أتلف وقاري بعض الشيء، صرت أسمح لأذني أن تسمع عبارات الحب الساخنة، وأسمح ليدي أن تلامس شفتيه عند اللقاء، حرك ثباتي، وضعني في مكان آخر، جعلني أتوهم أنني أجذبه إلى عالم جديد تماماً.

تمكن هذا الساحر مني، عرف طريقي المختفية، بدلني، لمع ضوء الحب في سمائي الزرقاء، تحول البحر الساكن، صار كل شيء معه رائعاً، لكنني بدأت أشعر بأنه أحبني بطريقته هو وليس بطريقتي أنا، حاول أن يحاورني بلغة الجسد، فلقد بدأ الحوار العقلي يفقد بريقه، وبدأ الحبيب يفقد صبره، ولكنه نسى أن الجسد واحد، يتكرر بتفاصيله من امرأة لأخرى، لم يدرك أن الاحتواء الكامل لي يكون بالعقل، بل بالعقل وحده، أحتاج إلى الحب، ولكنني أحتاج إلى العقل أكثر.

لقد غيّر الكثير، ولكنه لم يقترب من عقلي، اهتم بالجسد ولم يهتم بما يسيطر على هذا الجسد ويحركه.

كان نداء العقل عنيفاً، مؤلماً، رفض بشدة سطوة الجسد، فبهذا الجسد سأصبح امرأة مثل كل النساء، سأفقد أهم ما يميزني، الملامح تتغير بمرور الوقت، ولكن ملامح العقل ثابتة، بل قد تزداد جمالاً.

أدركت أنني سأصبح رقماً جديداً يُضاف إليه، وأنه يسعى كعادته إلى الجسد، فحتى أحاديثه كانت ساخنة مثل رغباته، اخترقت تفاصيلي وأشد خصوصياتي.

انسحبتُ، فكما ضاق هو بجوار العقل، سئمت أنا لمحاولاته للوصول معي إلى لغة لا أريدها، ولا أريد أن أتعامل بها، كان لا بد أن أعود إلى نفسي، طاردني فترة، فلقد كنا لا نزال في بداية الطريق، وكنت لا أزال في عينيه لغزاً، ولكنه توقف سريعاً، فلقد كنت قوية في انسحابي، مصرة عليه، وبقدر ما كان صعباً للغاية أن أخسر نفسي، كان سهلاً للغاية أن يبحث هو عن لغز آخر. أدركت حماقتي، عرفت أنني - ولأول مرة - أنحرف عكس تيارتي، أدركت أنني لن أُغيّر الآخرين، لن أبادل الأماكن، إما أن أقبل وإما أن أرحل، كل شيء سيعود كما عدت أنا.

عدت . . ولكن عدت أقوى، وأكثر ثباتاً وجدية، ولهذه
الأسباب؛ رشحتني لمنصب أعلى .

الوهم

وقفتُ في مدخل العمارة تسأل البواب عن إحدى الشقق، تأملها بشيء من الملل ثم أجاب وهو يشيخ بوجهه: في الدور العاشر. عندما سألتُ عن مكان المصعد، أخبرها أن المصعد عطلان، نظرتُ اتجاه السلم وهمستُ لنفسها: يا إلهي . . عشرة طوابق كاملة!

قررتُ أن تتأني في الصعود حتى لا تشعر بالتعب، لا بد أن تصعد إلى شقته، لا بد من الحوار، فلقد أصبحت الفواصل كثيرة في هذه العلاقة الشائكة، لا مفر من وضع النهاية. أخبرها أن الهاتف لا يصلح لهذه المناقشات الطويلة، قررا معاً أن يكون اللقاء في شقته، لم تكن خائفة من هذه الزيارة، كانت تعتقد أن الحقيقة التي اكتشفتها مؤخراً، أعطتها القوة على المواجهة.

إنها امرأة متزوجة، ورغم هذا سمحت للحب أن يطرق قلبها من باب خلفي، تجاهلت اللوم. منحت للحبيب قلبها فقط، واحتفظت بالجسد، وظلت مشتتة، ضائعة بين قلب أصبحت لا تملكه وبين جسد تمنحه بلا قلب.

توقفتُ، شعرتُ بالتعب، الأفكار ترهقها أكثر من الصعود،

نظرت إلى أسفل ، ما زالت في الطابق الثاني ، ما زال الطريق طويلاً .
دفعها الفراغ الذي يسكنها إلى حب آخر ، نفسها المتمردة كانت
أقوى منها ، عاندتها ، هيأت لها الحب ، جعلته حلو الملامح ، رأت
الحبيب في صورة غير الحقيقة ، ولو أنها دقت النظر لأدركت أنه يحمل
نفس الصفات التي تجعلها تبتعد عن حياتها الخاصة وتقرب منه ، إنها
تمنح قلبها لمن لا يستحق ، تعيش أحاسيس خاطئة في زمن وهمي ،
زمن وحبيب من صنع خيالها .

توقفت مرة أخرى ، تنهدت ثم تابعت الصعود ، لقد أصبحت
هشة للغاية ، أصابها هذا الحب بالضعف ، شعرت أنها مع الحبيب بلا
صوت ، امرأة في المرتبة العاشرة وربما أقل .

توقفت ، حاولت أن تسمع نفسها ، لا صوت ، ضاعت
الكلمات ، فتحت حقيبتها ، أخرجت نظارة الشمس الداكنة ،
ارتدتها ، بدأت في بكاء هادئ ، عالج البكاء بعض جروح النفس ،
مسحت دموعها بيدها المرتعشة ، لمست سخونة الدمع ، كان في سخونة
جرحها وخوفها ومشاعرها ، تأملت السلالم خلفها ، كانت نظرتها
منذ بدأت الصعود نحو الخلف دوماً .

واصلت الصعود مرة أخرى ، إنها تقرب ، تساءلت : هل

ستسمح للوهم أن يجتازها مرة أخرى؟ لقد جاءت لكي تقول وداعاً، ستفتقده، ستفتقد الوهم الذي عاشته زمناً وصدقته، لا بد أن تكون أقوى من نفسها، أقوى من ضعفها ووهمها، لا بد أن تغادر خيالها الذي خدعها طويلاً، أن تعلن الرحيل إلى الواقع، فهو بمذاقه المرأحلى من شهد الخيال.

وصلتُ إلى الطابق العاشر، اقتربت من الباب الذي يحمل اسمه، أصابها شلل تام.

لماذا صعدت إليه؟ . . إنها تدعي إنها تقاومه ولكنها جاءت، الوداع لا يحتاج إلى نقاش، إنه قرار لا رجعة فيه، والنقاش قد يحتمل العودة.

استدارت، سارعتُ نحو السلالم مرة أخرى، تجسد لها الوهم ضاحكاً ساخرأً، حطمته.

كانت رحلة الهبوط سهلة وسريعة.

في طريق العودة رن هاتفها المحمول، كان هو: لماذا تأخرت؟

أغلقتُ الهاتف، إنه رحيل بلا عودة.

نجمة

كانت الإضاءة خافتة، الوقت ليلاً. الزوج مسافر كعادته، الأطفال نائمون في غرفتهم، هي تنام وحيدة، الوحدة إحساس يسكنها، تطارد النوم كعادتها.

فجأة.. . شاهدت شيئاً يدخل الغرفة، في الإضاءة الخافتة بدا كالشبح بلا معالم، شعرت إنها تتخيل، الشبح صار أمامها، ينظر إليها وتنظر إليه، إنه حقيقة، شعرت بالخوف، دفعها.. . سقطت.

الأشباح لا تدفع البشر، تخيفهم فقط، لا بد أنه لص، ليس هناك تصور آخر، ماذا ستفعل؟ واللصوص أشد خطورة من الأشباح، كيف دخل الشقة؟ لا وقت للتساؤل، لقد بدأ يقترب منها مرة أخرى، بدأت معالمة تتضح، أشهر في وجهها سكيناً، تشعر بها تكاد تلامس عينيها، بدأ يقترب أكثر من السابق، بل أكثر من اللائق، شعرت بأن أمراً ما سيحدث، لمسها، اشتعل جسدها غضباً و ناراً حارقة، نجحت في النهوض، تجاهلت السلاح في يديه وكأنها لا تراه ولا تشعر به، تعرف كيف تدافع عن نفسها، لن تدافع عن الأموال ولا الذهب، لياخذ ما يريد ويرحل، أما أن يحاول سرقتها هي.. . فلا.

اقترب . . ابتعدت . . اقترب مرة أخرى ، دفعته بقوة الغضب داخلها ، لا تعرف من أين جاءت هذه القوة ولكنها دفعته ، مسجونة في هذا البيت ، حلم الحرية يراودها دوماً ، يمنحها قوة ، استغلتها الآن . سقط . . سقط هو ولم تسقط هي ، إنه يحاول النهوض ، تعرف أنه سيثار لسقوطه ، فالرجال لا يسقطون ، نهض ، ولكنه سقط مرة أخرى ، هذه المرة رقد بلا حراك ، الدفعة كانت قوية نحو الحائط ، الحائط به مسمار صلب بارز ، لا بد أنه سبب السقوط .

رأت الدم يندفع من رأسه بغزارة ، صرخت صرخة تجمع بين الخوف والانتصار ، أسرع نحو غرفة الأطفال ، أغلقتها ، اندفعت نحو باب الشقة ، فتحته ، صرخت : لص . . لص .

تجمع عدد من الجيران في بيت السيدة التي لا يعرفونها ، ولا تعرفهم ، هذه السيدة القابعة خلف حجاب الباب ، هذا الباب المغلق دائماً ، الآن فتحته ، ولأول مرة دخلوا ، دخلوا ليسمعوا القصة ، قصة اللص .

رددت بصوت مرتعد في نهاية قصتها : ثم . . ثم انتصرت عليه بفضل الله .

بدت القصة عجيبة في عيون الجيران ، تساءلوا ، لماذا يكون فضل الله في حجرة النوم ؟

والسيدة بملابس النوم ؟ وباب الأطفال موصل من الخارج ؟
والمرأة وحيدة في الشقة ؟

تحيلوا أمراً آخر وأقسموا عليه ، رفضوا تصديق الحقيقة ،
فالحقيقة لم تكن واضحة ، كانت مخبئة خلف الباب مثل السيدة
تماماً .

صرخت : إنكم عميان ؛ نظرت حولها ، لاحظت أن الغرفة ليس
بها سوى رجال . . رجال فقط ، إنهم لا يتأملون الجثة بل يتأملونها
هي ، إنها النظرة نفسها . . نظرة اللص الذي دفعته ، رغم الظلام
والضوء الخافت أدركت النظرة ، إنها المرأة الوحيدة في هذه الغرفة ،
وحيدة مرة أخرى . أصبح اللص رجلاً ، هل ستدفعهم جميعاً ، إنهم
يقتربون ، صرخت بأعلى صوتها ، إنها لا تملك الآن إلا صوتها ، إنها
وحيدة الآن ، بل أكثر وحدة مما مضى .

(انتهى المشهد)

برافو . . رائع . . صفق الجميع ، لقد أجادت اليوم ، انتهى
التصوير ، كان المشهد الأخير .

غادرتُ الأستديو إلى المستشفى ، أمها ترقد هناك ، والحالة حرجية
ل للغاية .

دخلتُ غرفة الأم، الأنابيب تخرج من كل مكان، مقياس القلب هادئ مثل البحر الساكن. لم تلاحظ، اقتربت من الأم بهدوء، جلست إلى جوارها، همست: كنت أبحث عنك اليوم يا أمي، كان المشهد الأخير صعباً للغاية، ذكرني بالماضي، بكل الرجال في حياتي، هؤلاء الذين كانوا يجلمون بالاقتراب من الضوء الساطع محاولين إطفاءه، كل التجارب كانت فاشلة، أعرف طعم الفشل، عرفت معنى ظهور الرجل ومعنى اختفائه.

الظهور والأفول لهما الطعم نفسه، كلاهما مر، سلسلة لا تنتهي من التضحيات، وكثيراً ما تكون صعبة ومستحيلة، كسبت نفسي، لم أنظف، صرت نجمة لامعة لأنك معي.

أحاطوني يا أمي، أحاطني الماضي، صرخت، كنت أناديك، أبحث عن يد تتشلني، يد تساعدني على النهوض، كنت أتجاوز بك كل آلامي، فعثراتي كثيرة.

أنت في حياتي الشيء الثابت الذي لا يتغير، الحب الذي لا يتبدل، أنت عالمي، أرجوك تماثلي للشفاء، أنا دونك وحيدة. . . وحيدة الآن. . . بل أكثر وحدة مما مضى.

غادرتُ الغرفة، كانت متعبة، دخل الطبيب، نظر في جهاز

القلب، أدرك أن الأم قد ماتت .

رحلت الأم، الموت كان في الانتظار، ولكن النجمة ما زالت
ترفض هذا الرحيل .

العطر

جلس وحيداً يفكر، ماذا حدث؟ لماذا تغيرت الحياة التي تركها وسافر، كان حبه حقيقة رائعة، لماذا تتبدل الحقائق؟، منذ عاد لم يعد يشعر بها، لم تعد قريبة منه، ذبلت، ابتعدت، تساءل: هل أرهقتها غربتي إلى هذا الحد؟

ما زال يفكر، الوقت لا يمر، كانا معاً قبل الزواج، يدها في يده، كانت الحياة تحمل رائحة العطر، لا مكان للكرامة والخصام بين قلبين جمعهما الحب، لم تكن تطيق فراقه لحظة واحدة، كانت تردد له دوماً: رائحة عطرك لا تغادر يدي أبداً.

كان يضع العطر من أجلها، يشتريه بنقوده القليلة حتى تحمله معها إلى بيتها، فلا تنساه سريعاً، كان العطر يحل محله عند الفراق.

بعد الزواج تتبدل الأحوال وتلمع الكرامة في الأفق ويطول الخصام، وتصبح الأشياء الحلوة ماسخة، حاول جاهداً أن يصلح بينها وبين أمه، فالبيت الضيق يضمهما معاً، كل واحدة لا تطيق الأخرى، تشعر إنها تأخذ مساحة لا تستحقها، أمه تتهمه دوماً بسوء الاختيار،

وزوجته تتهمه بأنه ابن أمه ، كان يضحك أحياناً وهو يقول لزوجته :
نعم أنا ابن أمي . . صدقيني شهادة ميلادي تحمل اسمها .

كان فقيراً متواضعاً ولكنه يحمل قلباً غنياً بالحب ، كان يحب
زوجته ، ولماذا لا يحبها وهي فاتنة ، حلوة الملامح ، ملفوفة القوام ، لم
يشعر يوماً إنها لا تليق به .

كانت أمه دائماً نائرة عليه ، ثورة لا حد لمفرداتها ، أما الزوجة
فكانت - كلما ضاقت بها الدنيا - تهدد صارخة : طلقني . . ، لم يكن
ليفعل أبداً ، إنه عاشق لها ، ولكن أمه لا ترى هذا العشق ولا تصدقه ،
ولا تهدأ الثورة ولا يحدث الطلاق .

كان يشعر أنه يريد أن يعوضها عن الفقر والحرمان ، أن يمتلك
الأموال التي تمسح العيوب وتبديلها مزايا رائعة ، قرر أن يسافر ، يعود
لها مُحملاً بالهدايا ، بكل ما تتمنى ، أحلامه محدودة تناسب طبعه
وأحواله .

في الغربية سيجني الأموال ، سيملاً دولابها الفارغ بالملابس ،
ويدها بالأساور الذهبية ، ويضيف إلى أذنيها قرطاً رائعاً يمنحها جمالاً
فوق جمالها ، كل شيء سيتغير ، ستعود رائحة العطر .

أمه رفضت السفر ، اتهمته أنه يبيع عمره ويخسر أيامه ، لم

يستمتع ، سافر ، ماتت أمه حزناً على فراقه ، قربه كان يمنحها الحياة ،
حل السكون برحيل الزوج والأم ، بقيت هي تعاني الوحدة التي طالت
كثيراً .

الغربة كانت قاسية ، شعر أن حياته تتسرب من بين يديه ، وأن ما
يحصل عليه لا يوازي آلام الوحدة ، كانت صورتها لا تغادره وهو
يقضي الليل وحيداً ، كان ليل الغربة طويلاً مرهقاً ، ولكن أحلامه
كانت تنتصر فيبقى عاماً آخر في هذا الليل الطويل الموحش .

بعد خمسة أعوام متصلة قرر العودة ، فالاشتياق أصبح أكبر من
احتماله ، أكبر من قرار البقاء ، انتصر قلبه على أموال الغربة ، عاد
مُحملاً بالهدايا .

عاد لها ولكنها لم تكن هي ، كل شيء مازال كما هو ؛ البيت ،
الشارع ، الجيران ، ولكنها تبدلت ، جفت المشاعر والأحاسيس التي
كانت تغذيها ، ذبلت كأوراق الشجر .

بدأ يتأملها أمامه ، اخترقها ، يريد أن يعرف سر الذبول ؟ فلقد
اتسعت المسافة بينهما ، أصبح للصمت مساحة لا تطاق ، كان قلبه
يؤكد له دوماً إنها تحبه ، أمسك يدها ، قَبَّلها : ماذا حدث ؟ ما زالت
يدك تحمل رائحة عطري .

وكانها كانت في انتظار: أي عطر . . سنواتي السابقة كانت بلا
عطر . . أنهكتني الغربة . .

بقيت هنا وحيدة بلا زوج ولا طفل ولا مال . . كنت أشتاق
إليك . . بل كنت أشتاق لثورة أمك . . ولكن لا صوت . . حل
الجفاف . . سكنني البؤس . . كل شيء ثابت إلا أنا . . الليل طويل
وطول الليالي يجعل الخوف يسكننا . . عندما هجر الحب قلبي سكنني
الخوف . . تمكن مني . . حاصرني . . واجهت الكثير وحدي . . لم
تكن معي . . لم تعد تشاركني متاعبي . . تعلمت أن أحيا بدونك بعد
أن كنت لا أطيق فراقك . . كنت أشتاق إلى الكلام . . أفتقد صوتي
ودلالي . . تعلمت الوحدة، فعلمتني أن أصادق الخوف . . كنت أريد
الذهب والقرط والملابس، ولكن هذه الرغبة تبدلت . . قبل سفرك
كنت أنا من يبدأ الكلام . . أنا من يبدأ مخاوفك .

الآن كلانا صامت . . كلانا يحتاج لمن يبدد صمته .

دخلت غرفتهم، عادت تحمل الملابس والذهب، نزع القرط
عن أذنيها، وضعت كل شيء أمامه: خذهم . . لقد سلبوا قلبي . .
أضاعوا أيامي . . كانوا السبب في غربتي ووحدتي وجفافي .

- إلى أين؟

- لم يعد لي مكان هنا .

أمسك بيدها : سأبدأ أنا . . سافرت حتى أعوضك الحرمان . .

فجلبت لك حرماناً أكبر . .

لم أدرك أن كليتنا عاش الغربة وتألم من قسوتها . . ولكننا

عدنا . . امنحيني فرصة ، فما زالت يداي تحملان عطراً . . ما زال

هناك ما أمنحه .

لحظات مسروقة

جلستُ إلى الطاولة الأنيقة في أحد المطاعم الهادئة أنتظرها، لا بد أن الزحام قاتل في الخارج، ولهذا تأخرت، التقيت بها كثيراً في ظروف مختلفة، لكنها طلبت لقائي بشكل شخصي، لتناقش معي أمراً ما، ما زلت أجهل هذا الأمر؟ ولكن ما أعرفه أنني سعت إلى هذا اللقاء، وأنني أنتظرها، هناك ما يدفعني للبقاء، بدأت أتأمل الناس من حولي لقتل الوقت، رأيت وجهاً بدا لي مألوفاً - أو ربما تخيلت هذا - ثم أدركت أنه يذكرني بصديق عزيز لم التق به منذ زمن .

ابتسمت . . تذكرت صديقي هذا جيداً، تذكرت لقائي الأخير به، تذكرت زوجته، تذكرت دموعها الحارة وهي تحكي لي عن الأخرى، التي تظن إنها موجودة في حياة زوجها، كنت وزوجتي نحاول أن نجلب لقلبها المنزعج بعض الهدوء، كانت تحكي والدموع تنساب من عينيها الجميلتين كيف جمع الحب بين قلبها وقلب صديقي من النظرة الأولى، كيف كان كل شيء بينهما يولد طفلاً رائعاً في المهدي، الحب، الزواج، الأمومة .

تساءلت زوجة صديقي : لماذا انتهيت في عينيه وقد كنت حبا لا ينتهي . . أين ذهب كل هذا . . لماذا رحل الحب ؟ أصبح زوجي صامتاً شاردأ . . لا يتحدث في البيت مطلقاً . . لا يشاركنا أنا والأبناء أي متعة . . زادت مساحة الصمت والوحدة في حياته كثيراً . . معنا ولكنه في مكان آخر . . يستمتع بوحده . . ينام في حجرة منفصلة . . كان يقول الكثير وهو صامت شارد . . ابتعد بجسده عني . . ثم بدأت روحه تغادر شيئاً فشيئاً . . رغم ذلك ما زلت أحبه . . وأحياناً كثيرة ألوم نفسي على أنني ما زلت أحبه .

قررت أن أذهب وحدي إليه ، فهو صديق عمري ، أريد أن أعرف أسباب صمته ، أن أعرف مبررات الرحيل ، فلقد ترك شقته وذهب للإقامة في شقة أمه الراحلة ، كان قليل الكلام ، بعد مقدمات لا معنى لها . . تساءل : هل أرسلتك ؟ هل سمعت شكوكها وظنونها التي لا تنتهي ؟ هل رأيت دموعها التي لا تتوقف .

ضم رأسه إلى يديه وكأنه يحاول أن يعنصره ، شعرت بقسوته على نفسه ، نظر نحوي طويلاً نظرة لا أنساها ، كنت أرى فيها نوعاً من الانكسار ورغبة في الهروب ، بادرته :

لماذا ؟ لماذا تركت بيتك ؟ لماذا غادرت حياتك كلها ؟

ظل يفكر وكأنه يتمنى أن لا يتكلم : إنه إحساس لا أستطيع أن
أصفه . . ونقطة لا أعرف لماذا وصلت إليها . . وأسئلة بلا إجابات . .
سأتحدث معك كأنني أتحدث إلى نفسي . . سأقول لك ما أخفيه . .
نعم هناك امرأة أخرى غير زوجتي . . هذه المرأة أخرجتني من القلب
الجامد الذي أحياه . . فتحت أبوابي فدخلت . . كانت شيئاً مختلفاً . .
أضافت لحياتي مساحات جديدة كنت أحتاجها . . منحنتني قدراً أكبر
من حرية الحركة . . تملكنتني دون أن أشعر . . أصبحت أحب أن
تشاركني أفكارى ، أن تشاركني أحاسيسي وخواطري . . إنها تشعر
بى جيداً . . تتكلم عندما أحب أن أسمع صوتها . . وتصمت في
لحظات صمتي . . أعادت اكتشافى .

كنت قد بدأت أشعر بأننى أفعل الشيء نفسه كل يوم . . أسير في
طريق واحد . . في اتجاه واحد لا يحتمل العودة . . جاءت هي . .
اقتحمت منفاي الذي اخترته بإرادتي . . جعلتني أشعر بأن هناك شيئاً
ما جديداً . . حطمت ما كان يحجب عني الرؤية . . أبصرت الدنيا
بعيون جديدة . . عيون لم يعد بريق الماضي يأسرها . . أدركت أنني
تحررت من أشياء لا أريدها . . أحب زوجتي . . نعم أحبها ولكنه
ليس الحب نفسه الذي بدأنا به . . إنه الواجب وليس الحب . . أدرك
أن الواجب قد يحكمنا بدرجة أكبر من الحب . . ولكن زوجتي رفضت

هذا . . رفضت أن يحكم الواجب علاقتي بها . . وعندما شعرت بأن هناك أخرى . . هاجمتني . . سعت خلفي . . لم تكن بجانبى مثل الأخرى .

تمسكت زوجتي بالماضي . . حاولت أن تعيد إليه الحياة . . أن توقف الزمن . . تناست أن كل يوم يحمل شيئاً مختلفاً . . فكراً جديداً . . أصرت على ما كان . . أخبرتها أن الأخرى التي تشك في وجودها إحساس وهمي . . وأن عزلتي مجرد مسألة وقت . . كنت أتمنى أن تتركني للوقت . . فربما تتغير أشياء كثيرة كما تغيرت أنا، ربما يرحل هذا الحب الجديد في وقت ما وأعود كما بدأت، ربما أستطيع أن أغلق أبوابى مرة أخرى . . نظرنا للأشياء ليست ثابتة . . أحكامنا تتبدل على الدوام . . أنا لم أطلب أكثر من فرصة . . أكثر من مجرد وقت . . للأسف لم تمنحني زوجتي هذه الفرصة، منحتها لي - الأخرى - .

عندما شعرت بأن حياتي مع أسرتي تترنح . . اختفت . . شعرت بفراغ قاتل عندما اختفت . . استعدتها من جديد . . رفضت - هي - أن أعاني، أما زوجتي فجلبت لي المعاناة بدموعها وآلامها ومطاردتها لي . . كنت أتمنى أن أختلي بنفسى . . أن أعيد حساباتي . . أن أقدر

حجم خسائري . . لكن للأسف دموع زوجتي أجبرتني على
الرحيل . . لم أعد أرغب في البقاء خلف أسوارها ، فهي لم تحترم
وحدتي . . قاتلت زوجتي من أجلي . . وانسحبت الأخرى
بهدوء . . وأنا أكره المعارك . . انسحبت . . وعندما انسحبت التقيت
بالأخرى مرة أخرى .

هل ستصدقني لو قلت لك إنني لن أتزوجها ؟ . . أعرف أن
زواجي منها حلال لي . . ولكنني سأظلم أسرتي بهذا الحلال . .
سأخسر الكثير من المشاعر . . سأبدل الثقة النادرة بيقين لا يقبل
الشك . . سيجلب الحلال صراعاً نفسياً لي ولزوجتي ولأولادي . .
لن أهدم بناء استغرقت فيه أعواماً طويلة . . من أجل حديقة
صغيرة . . مهما تكن جودة العطر الذي ستمنحه لي . . كنت أتمنى أن
تمنحني زوجتي لحظات . . مجرد لحظات أستعيد بها نفسي . . لكنها لم
تفعل . . حاصرتني . . كان عليّ إما أن أعلن العصيان . . وإما أن
أستمع لصوت الواجب .

سألته على الفور : ماذا ستفعل ؟ كان عليك أن تتقبل حياتك كما
هي . . أن لا تحاول إعادة اكتشاف ذاتك مع أخرى . . أن لا تبيع أيام
عمرك الطويلة لكي تمنح نفسك لحظات مسروقة

أغمضت عيني ، عدت إلى طاولتي في المطعم الهادئ من جديد ، تذكرت أنني لم أتلق من صديقي أية إجابة ، كانت إجابته النظرة نفسها التي استقبلني بها ، وقتها كنت نائراً عليه ، رأيت أنه يهدم حياته بلا داع ، وأنه يحطم النادر فيها ، وأنه يرحل مهزوماً ، مكسوراً ، خاسراً . أفكر الآن في كلام صديقي ، أشعر ببعض الندم لأنني لم أقف إلى جواره ، تركته وحيداً ، لته كثيراً ، كان مخطئاً ولكن ليس إلى الحد الذي كنت أظنه .

نظرتُ إلى ساعتِي ، غادرتُ المكان ، لمحتها من بعيد تدخل المطعم مسرعة ، في كامل أناقتها ، شعرت بعطرها يملؤني ، لا أعرف لماذا أسرعت بركوب سيارتي ؟ لماذا أسرعت بالابتعاد ، كل ما أعرفه أنني قررت أن لا أفتح أبوابي لأخرى ، أن لا أعيش تجربة صعبة - رفضتها - لصديق عزيز يوماً ما .

عملة واحدة

كانت كلمات الأغاني تغذي أحاسيسي المتدفقة، فأعيش معها لحظات حب لا تنتهي إلا بنهاية الأغنية، كل الكلمات تتغنى بالحب وتدور حوله، الحب الذي أحياه دائماً، فأنا امرأة عاشقة، أعشق اللحظات الدافئة، أعيش مع الكلمات الموسيقية مشاعر متضاربة؛ هجر، عشق، خداع، حب، رغبة، لا يهم كم تسرق الكلمات من وقتي أو من تسرق، المهم أن أعيشها.

قالوا عني جميلة، فصرت جميلة، أعرف كيف أبرز هذا الجمال وكيف أستغله جيداً، أعرف كيف أحرّك عيني كالسهم فتصيب الهدف، وللعيون لغة يدركها العشاق جيداً.

قالوا عني لعوب، فتقمصت الشخصية، نحن نصدق كلام الآخرين لو ظلوا يرددونه دوماً، بل نصبح أحياناً كما رددوا، أصبحت امرأة لعبتها الرجال، خاصة بعد فشلي في زواجي الثاني.

زوجي الأول لم يقدر جمالي، أراد لي الأمومة، والأمومة تتلف الجمال وتتعارض معه بعض الوقت، وأحياناً معظم الوقت.

زوجي الثاني كان عاشقاً للجمال، ولكنه كان يبحث عنه دوماً،

فالجمال لا يستقر في مكان واحد، ولا يحصره زمن ولا عمر. لم يكتف بزهرة واحدة، تعلمت منه كيف أنتزع الرجال المتزوجين، فلقد انتزعتني مني امرأة أخرى، لم تكن أجمل، فقط كانت لعوباً، تجيد فنون اللعب لدرجة الاحتراف.

عندما تم طلاقي للمرة الثانية حملت اللقب، قالوا: لعوب لا تجيد البقاء مع زوج ولا إنشاء علاقة ثابتة، بعد طلاقي الأول كنت جميلة فقط، بعد طلاقي الثاني صرت لعوباً، هذا اللقب اللعين ظل يطاردني بالباح حتى صدقته، واعتنقته أيضاً.

بعد طلاقي الثاني تزوجت مرتين، صار الطلاق أسرع من الزواج في حياتي، فالرجل المتزوج؛ الحياة معه قصيرة، البقاء معه ضربة حظ لا أريدها، أريد المال، فلقد أضفت لعبة المال إلى لعبة الرجال، أضفت إلى نفسي أموالاً وعقارات وماسات ذات قيمة كبيرة، لا بد أن يكون كل شيء بثمن.

هو.. لعبتي الجديدة، ولكنني للأسف أحببته، وتمنيت أن يكون محطتي الأخيرة، في هذا اليوم كنا معاً نرقص، والرقص اتصال وتواصل، عناق طويل على إيقاع راقص، لم أكن أذوب مع الكلمات والأنغام، لم أنس الدنيا كما كنت أهمس، لم تكن رومانسيتي على

ما يرام رغم ثبات كل شيء ، المكان نفسه ، الموسيقى نفسها ، الحبيب نفسه ، ولكنني لست أنا ، كان عقلي هذه المرة بعيداً عنه ، مع زوجته ، لم أشعر أبداً بما يسمونه وخز الضمير وأنا ألقاه وأعرف أن له زوجة ، فهذه لعبتي ، إنه رجل جذاب للغاية ، مركز اجتماعي مرموق ، نفوذ ونقود ، أي احتياج لا يحققه رجل مثل هذا لديه كل شيء !

لم يكن يتحدث عنها أبداً ، ترك المجال الخيالي بحدوده الضيقة ، تخيلتها غير جميلة ، غير أنيقة ، ذات جسد غير متناسق ، خيالات كثيرة ، تمنيت أن ألقاها ، لا أعرف لماذا ؟

سعت جاهدة لهذا اللقاء ، لا أريدها أن تعرف من أكون ، أريد لقاء لا شبهة فيه ، وتحقق لي ما أردت .

وجدت امرأة تغلبت على كل خيالاتي ، بل حطمتها وتجاوزتها ، جميلة ، أنيقة ، ذات قوام متناسق ، جمالها حقيقي بلا مساحيق ، أناقتها بلا رتوش إضافية ، لا بد أن صاحبة هذا الوجه الخالي من الألوان واثقة بنفسها ، امرأة تكره الخداع .

تحدثت معي طويلاً ، في كل شيء وعن كل شيء ، شديدة الثقافة وهذا ما أفتقده تماماً ، فتقافتي محدودة للغاية ، يسهل الدخول معها في أي حديث ، سمعتها ، تأملتتها ، كانت رائعة ، تطرق الحديث إلى

العلاقة بين الرجل والمرأة، تعمدت هذا، أريد أن أعرفها، أن أقرب منها ولو بقدر ضئيل، فهذه منطقتي وحدود ثقافتي، حدثني عن المرأة وكأنها كائن لا أعرفه، عرفت أشياء لم ألحظها في نفسي من قبل، جعلتني أحب كل امرأة، تجاوزت حدودي الضيقة، وأضافت إليّ، كانت عميقة الفكر، تغوص بعيداً عميقاً في نفسك فتستخرج كل شيء، من الصعب أن لا تمنحها مفاتيحك، من الصعب أن تتلون أمامها، فهي امرأة بلا مساحيق، تواضعها المحسوب يمنح قرباً لا حدود له.

دون أن تقصد واجهتني بنفسي، جردتني، كسبت الجولة التي ظننت أنني سأكسبها، اكتشفت أمامها أنني لا شيء، مجرد ألوان وعطور فاخرة وملابس عارية، جسد متناسق، أشياء تذبذب وتتبدل، من أنا؟ لوحة جميلة، قليل من الماء يمسح معالمها، ألهذا أحبني؟ لأنني مثله زائفة، جمعتنا المظاهر الخادعة، لم تحاول أحاديثنا العابرة أن تصل إلى الأعماق، كل منا لا يجيد السباحة، لا يرى من الآخر إلا ما يخدع البصر.

من أنا؟ مجرد محطة في حياته، بعد لقائي بها، أدركت لماذا لم يطلقها، أدركت أنه لن يطلقها، أنه يحبها، يعرف قيمتها، هي المحطة الأخيرة، هي صدق بلا زيف.

قبل أن أراها راهنت على أنني سأنتزعه لنفسي ، ظننت أنني سأكسب ، أقسم لي أنني الحب الوحيد الذي احتواه ، وأني المحطة الأخيرة التي لا سفر بعدها ، كيف لم ألاحظ أنه تعهد أن يتخلى عن كل شيء إلهي ، كاذب ، ولكنني صدقته ، قبلت خديعته لأنني مخادعة مثله ، إنه زائف مثلي ، نحن وجهان لعملة واحدة .

هي في حياته حب عاقل ، أنا حب عابر ، لحظات ، وقت يمضي ، معها كل شيء محسوب وبدقة ، معي كل شيء مباح وسهل .

أدركت إنها البطلة الأولى التي تحصد الجوائز ، أما أنا فصاحبة الدور الثاني ، قد يكون مهماً ، ولكنني سأحلم يوماً بدور البطولة ، أدركت أن هذا الكيان العملاق الذي يحتويني مجرد قزم ، قزم صغير أمامها ، لا بد إنها تتجاهله ، تتجاهل زيفه وتذكر أمومتها وعقلها ، عقلها الذي يمنحها الثبات .

همس في أذني : ماذا هناك ؟ ما الذي يشغلك ؟

لم أكن أسمع الموسيقى ، كنت أرقص بلا نغمات ، حركات غير محسوبة ، دست قدمه كثيراً ، أوجعته ، تنبهت ، عاد إليّ العقل الذي رحل بعيداً ، رأيته ولكن هذه المرة كان مجرد قزم ، لا بد أن أحصل على دور البطولة المطلقة ، وإلا فالانسحاب هو الحل الأفضل ، عرفت أنني

قد أكون مجرد نزوة، منحني المال والماس ولكنه لم يمنح وعداً بالزواج، أدركت أنني من السهل أن أحصل على مكان بقربه، ولكن من الصعب أن أحصل على المكان نفسه في قلبه، بدأت أمل الفشل والطلاق، لم أعد بحاجة إلى مزيد من المال، امتلكت ما كنت أتمنى، المال يمنح السعادة، ولكنها سعادة مؤقتة، أريد علاقة ثابتة تملأ حياتي، استيقظ داخلي شعور غريب لم أشعر به من قبل، أظنه الأمومة.

بدأت أسمع الموسيقى، شعرت بأن حبي سيتتهي بنهاية الأغنية، لا أريد أن أبقى محصورةً في الدور الثاني، قد يكون البديل رجلاً آخر متزوجاً، لا يهم، المهم أن لا تكون في حياته زوجة مثل هذه، هذه التي جردتني.

كلمات

لن أتحدث عن ظروف لقائي به ، فأنا حتى لم أعد أذكرها ، ولكن هذا اللقاء كسر الملل الذي دب في أوصالي ، حطم عالمي الصامت ، أصابني ببعض السرعة بعد أن صار إيقاع الحياة بطيئاً إلى حد الشلل ، هذا اللقاء أعاد تكويني ، منحني الحياة الأخرى التي كنت أبحث عنها .

كان لقاءً بالكلمات فقط ، لم يكن للغرائز أي دور فيه ، لم يكن بيننا لغة غير الحوار ، جمعنا الكلمات ، كسرت حاجز الصمت في حياتي ، صرنا قريبين إلى حد التماثل ، خلقت الكلمات علاقة صادقة ، اتسمت بالشفافية ، فانتقلت الأحاسيس بلا قيود ، وتحركت الأفكار دون زيف ، وأصبحت المشاعر حرة طليقة .

كلمات منحنتني لحظات سعادة غالية ، غالية للغاية ، جددتني ، لمستني ، أعادت الضائع مني ، دون أن تقصد قدمت لي أشياء كثيرة كنت أحتاج إليها ، بل كنت أبحث عنها وأشك في وجودها ، ودون أن أدرك تغيرت ، صرت أشم للعطور رائحة أخرى ، وأبصر كل المعاني الخفية ، استولت هذه الكلمات على روحي ، حلقتُ بعيداً ، وجدت

في البعد الكثير من الأشياء المفقودة، صرت أنا وهذه الكلمات روحاً واحدة، منحنتي أجنحة بيضاء، فحلقت بعيداً مثل طائر يهرب من الأسر، يبحث عن لحظة حرية.

لن أتجاوز، لن أعبر مع الكلمات إلى عالم الرغبة، سأبقي عليها صادقة نقية، فأنا أدرك أن التجاوز يقتل الروح، ويحطم الجمال، ويغير خريطة الطرق.

أدرك إنها مجرد كلمات، كلمات تراني كما أريد، تدركني، تضيف إليّ، كلمات منحنتي الحياة، منحنتي صدقاً نادراً، تلاشت كل الأشياء أمام هذه اللحظات التي أحيها، والتي أعادتني من جديد، وضعت الكلمات حاجزاً من حريز بيني وبين الأشياء، فصرت ألمس الأشياء بأجنحتي البيضاء، وبدأت أشعر بالغرابة عن كل المحيطين، لا أراهم ولا أسمعهم، أحياء في عالم لا تشعر به إلا روحي فقط، انفصلت عن جسدي، فالجسد في قاموسي عنوان للرغبة، والرغبة لا تحكمني أبداً، صرت غريبة وسط البشر مثل الأزهار الجافة، تمنحنا الجمال، ولكنها تبقى أزهاراً بلا روح وبلا عطر.

حلقت مع الكلمات ونسيت أشياء كثيرة، نسيت أنني طائر

شرقي ، وعالم الشرق يرفض الصداقة بين رجل وامرأة ، لا يرى من المرأة إلا جسداً تحكمه الرغبة .

تساءلت : هل من حقي أن أرحل بعيداً عن متاعبي وآلامي ؟ أن أبحث عن السعادة في كلمات . . كلمات لا تأخذ بل تعطي . . هل من حقي أن أتحرّر من جسدي الشرقي ؟

هل من حقي أن أخلق لنفسي عالماً حريراً . . عالماً يمنحني إحساساً بالراحة . . عالماً يمنحني كلمات صادقة . . كلمات بعيدة عن الزيف والغيرة والأحقاد !

هل من حقي أن أخلق خارج أسواري ؟ هل سيصيب الرصاص الباحث عني أجنحتي البيضاء ؟ هل سأتوقف ؟ لا أعرف .

حاولت ، عندها عاد الصمت مرة أخرى ، وبدأ الملل يتسرب من

جديد .

اللون الأبيض

فُتح باب الحجز الانفرادي، فركت السجينة ذات البدلة الحمراء عينيها تتأمل القادم، لا بد أن اللحظة قد حانت، كانت مستعدة للموت، رأت سيدة ترتدي ثوباً أبيض وطرحه بيضاء على رأسها، تأملتها، عرفتها على الفور، همست لنفسها: إنها أمي . . نعم هي .

عرفت أنهم حققوا لها رجاءها الأخير، هذا الرجاء أن ترى أمها قبل أن تغادر الدنيا بلا رجعة، دخلت السيدة، أقبلت الفتاة عليها تريد أن تُقبل يدها، سحبت السيدة يدها سريعاً، نظرت نحو الفتاة بوجه جامد: لماذا طلبت لقائي؟!

ردت الفتاة سريعاً دون تفكير: لأنك أمي . . تقدرين مشاعري . . تعرفين أنني رغم كل شيء أحبك .

- ماذا تريدين؟

- أريد رضاك في ساعاتي الأخيرة . . لا أطلب أكثر من هذا الرضا . . لعله يكون شفاعة لي بعد الموت .

- وكيف أمنحك الرضا؟ كيف أدعي كذباً أنني راضية عنك؟

ارتمت الفتاة تحت أقدامها متوسلة: أرجوك . . أحتاج إلى هذا
الكذب الآن . . أحتاج إلى طوق نجاة .

- لا أعتقد أنك ستحتاجين إلى طوق واحد فقط .

- لا يهم . . يكفي أنك جئت . . أراك الآن أمامي . . ألمح الطهر
كله في ثوبك الأبيض . . يكفي أن تكون صورتك آخر صورة أراها قبل
الموت .

- أنت من جلب الموت لنفسه !

- لقد كنت ميتة بالفعل منذ زمن . . لم أعرف طعم الحب منذ
غادرت بيتك يا أمي . . في أحضانك كان الله يشاركني كل حب طاهر
نظيف . . كل حب يقربني منه ومنكم . . حب الله يمس الروح ويشغل
القلب . . شعرت بأن حب الله يغادر قلبي عندما استبدلت بحبه حب
البشر . . هؤلاء الذين لا يمتنون لي بأي صلة . . لم يجمعني بهم إلا
حب الدنيا بلهوها وشهواتها . . غادرني حب الله فاقتربت من
الشیطان . . احتواني . . برر أخطائي وسقطاتي .

شعرت بأن البيت خانق . . هربت بحثاً عن الهواء ووجدته . .
كان هواءً فاسداً ولكنني أدمنته . . لم أمنع نفسي من أي شيء . .
عشت الحياة بكل متعها دون توقف ودون مانع ، منحت كل شيء . .

راقصت الشيطان بل عشقته . . كان الرجل الذي تركت البيت من
أجله شيطاناً . . تركته يجركني كيف يشاء . . كنت أرى الدنيا في
خطواته . . كل يوم حب جديد .

عطاء بلا حدود . . متعة لا تعرف التوقف . . لم يكتف بأن أكون
له وحده . . منحني لكل من أرادني . . وأنا منحت نفسي لكل من
أردته . . صعدت وفي الأعلى رقصت . . ففقدت توازني سقطت . .
وعندما سقطت حطمت نفسي وكل من حولي . . قتلت الرجل الذي
دفعني من أعلى . . الشيطان الذي كان يجركني . . قتله حتى أعثر
على نفسي . . كان لا بد أن يرحل . وأن أتأكد من رحيله . . لا أريد أن
أغادر وأترك له الدنيا . . فلقد كان أول خطيئة . . أول خطواتي نحو
الهاوية . . ما زلت أتذكر جيداً المرة الأولى . . نحن لا ننسى - أبداً -
تفاصيل المرة الأولى .

أمي . . لم أر اللون الأبيض إلا عليك . . لم ألمحه إلا الآن . .
امنحيني جزءاً من هذا اللون حتى أرحل به . . أرجوك يا أمي . . أدرك
أنني لن أتحرر حتى يغادرني الماضي . . حتى تغادرني ذكريات المرة
الأولى .

نهضت الفتاة، اقتربت من الأم، لمست ثوبها الأبيض، منحتها

السيدة يدها ، قبلتها الفتاة بشدة وهي تبكي : أعرف مدى قسوة كلامي عليك يا أمي . . أسمع دقات قلبك المدعورة . . ولكن الندم قاسٍ للغاية . . قسوته بالغة . . أقسى بكثير من الكلمات .

ضمتها الأم إلى صدرها ، همست بألم : الندم توبة .

همست الفتاة : وهل هناك وقت للتوبة ؟

غادرت الأم باكية ، وفي الصباح نُفذ حكم الإعدام .

الرقصة الأخيرة

كانت رغبتني أن أكون وحيدة تماماً في الغرفة ، جلست أمام المرأة ،
أضع المساحيق الملونة على وجهي ، أحاول أن أرسم وجهاً آخر ،
ابتسامة زائفة ، أحاول أن أصبغ الحزن بألوان الفرحة ، أن أحوّل هذا
الوجه الشاحب إلى وجه ملون ، لكن الألوان لم تساعدني ، كنت
أشعر بأن ملاحمي الجامدة تنتصر ، وأن لون الحزن أقوى .

نظرتُ خلفي إلى الثوب الملقى على السرير كالجثة ، ثوب أبيض
ناصع ، لون العرس ، لون الزفاف ، في نظري كان لون العبودية ، هذا
الثوب سيحملني إلى رجل لا أحبه . . ولن أحبه . صوت الأغاني كان
عالياً في الخارج ، وألوان الكهرباء تضيء غرفتي كل لحظة بلون
جديد ، في كل لحظة كنت أشعر بشيء مختلف .

الجميع في الخارج يرقصون . في الأرياف ، للأفراح مذاق خاص ؛
فهني للبنات لحظات حرة لا يمتلكنها دائماً ، يحتفلون بزفافي إلى ابن
عمي ، أحد رجال القرية الأثرياء ، رجل اختارني لأكون زوجة له ،
اختارني رغم أنني أكرهه ، بل أكره كل شيء فيه ، مشاعري لم تكن

ذات قيمة ، المهم مشاعره هو ، كرهته ولكنه عشق جمالي ، جمالي قادني إليه ، ولهذا كرهت ملاحمي ، جمال الملامح صار في حياتي قيداً حرمني من الكثير ، نقلني سريعاً من عالم الطفولة إلى عالم النساء .

في حقيقة الأمر لم يكن هذا الاحتفال ليلة زفاف ، كان صفقة ، باعوني لهذا البغيض الذي دفع الثمن ، اشتراكي بماله ، رغم أنه رجل بذئ الطباع ، قبيح الملامح ، سيئ السمعة ، متزوج من غيري ، وافقوا عليه ، فتحوا له الأبواب لأنه دفع المقابل ، باعوني مقابل قطعة أرض ، قارنوني بالطين ، بل إن الطين الذي في مثل لون ابن عمي كان أعلى مني قيمة .

بكيت لأبي ، توسلت إليه دون جدوى ، الصفقة كانت محكمة ، البيع لا رجعة فيه ، الرجوع في القرار فيه مساس بكل رجال العائلة ، وكيف تواجه امرأة مثلي رجال العائلة ، بل كل رجال القرية ، كيف تقول امرأة : لا ؟ . . . هذه الكلمة لا يسمعونها من النساء في قريتي أبداً .

كنت أثق أن الرحمة لن تعرف طريقها إلى قلوب استبدلت بي قطعة أرض ، كنت العتبة الضعيفة المكسورة التي عبر عليها الجميع دون اكتراث ، باعوني وقبضوا الثمن ، ثمني كان طيناً أسود ، ما أرخصني .

تذكرتُ أمي، تذكرت صورتها التي لا تغادرنِي، تجلس أمام فرن البيت تحبز، وجهها أحمر بلون النار، صامتة قليلة الكلام، حدثتها باكية، كنت أريد أن أبقى في مدرسة القرية، تحدثت إليها بصوت مرتفع، وبإحساس طفولي متمرد صرخت، أريدها أن تسمعني، أريدها أن تتكلم، أن أسمع صوتها، أن تشاركني ثورتي، نظرت نحوي، قالت بهدوء قاتل: ماذا ستصنع منك مدرسة القرية؟ هل ستحولك إلى رجل؟ لا تعترضني فليس لاعتراضك صوت.

جاء أبي، سمع صوتي، وقبل أن أبدأ في الكلام عاجلني بضربة قاسية أفقدتني توازني، سقطت على الأرض دون بكاء، فقدت صوتي، كتمت الألم، عرفت أنني لن أذهب إلى المدرسة مرة أخرى، أدركت معنى ما تقوله أمي، صرت مثلها، اعتنقت الصمت مبدأً.

وبلا صوت رحلت أمي، رغم آلامها الشديدة رحلت في صمت، كانت شريكتي في خدمة رجال البيت، لم أسمعها يوماً تقول لا، بعد رحيلها أدركت كم كنت أحبها، شعرت أن الفتاة كائن يأتي بلا رغبة ويرحل بلا صوت.

تزوج أبي بعد رحيلها بشهر واحد، لم يشعر بالحزن لحظة واحدة، في البداية كرهت زوجة أبي، شعرت إنها تأخذ مكان أمي في

كل شيء ، كانت مختلفة كثيرة الكلام ، بعد فترة من الوقت ، وجدتها
تذكرني بأمي في شيء واحد فقط ، بدأ الصمت يسكنها ، الصمت
نفسه أمام فرن البيت ، احمرار الوجه نفسه ، المشهد نفسه ، شعرت أن
الصمت من صفات النساء ، وأن من حق الرجال أن يتحلوا حتى
بالقبح .

أنا امرأة جميلة ، يجب أن أكون هكذا حتى يدفع الرجال ، هو
رجل قبيح ، لا يهم ، فليكن كما يريد ، ولكنه يشتري الجميلات ،
ينتمي لعالم واسع النفوذ ، مسيطر ، عالم لعبته المرأة ، المرأة في قريتي -
حتى في عيون نساءها - يحكمها جمال الجسد .

منذ الطفولة حملت عبء أنوثتي ، شغلوني بجسدي ، صرت
أخجل منه ، عندما أسير في طرقات القرية الضيقة أحاول أن أخفي
معالمي ، أن لا أرفع رأسي ، كنت أتعثر في سيرتي أحياناً كثيرة ،
أصطدم بأشياء لا أراها أمامي ، كنت أتعجب : كيف لا ترفع رأسها
من تنجب الرجال . ، كانت العيون تلاحقني ، فرغم المعالم المطموسة
كان الجمال يطل بعيون حلوة ودلالات كثيرة ، فالجمال مطارد بعيون
لا تفهم إلا لغة الجسد .

طرق على باب الغرفة ، إنها زوجة أبي تتساءل باستغراب لماذا لم
أرتد ثوب الفرح !؟

تردد ضاحكة وهي تغادر الغرفة : بسرعة . . العريس وصل .

أغلقت الباب خلفها، أمسكت الثوب بين يدي . . لا أطيعه، لا أستطيع أن أجعله يلامس جسدي، صوت الأغاني عالياً يعلن عن قدوم العريس، كان لابد أن أحتفل، أن أتراقص طرباً، أخرجت زجاجة صغيرة من أحد الأدراج، شربتها كلها، بدأت الدنيا تدور، شعرت بألم شديد في معدتي، بدأ السم يسيطر على جسدي، بدأت أنمايل بعنف من شدة الألم، نظرتُ إلى نفسي في المرآة . . كنت أتراقص بلا إيقاع، رقصة متخبطة، إنها رقصة الموت الأخيرة .

كل شيء من حولي يتساقط، هذه الألوان على وجهي تخفي إحساسي الرهيب بالألم، صرخت بأعلى صوتي : لا كانت أغلى ما رددته .

فجأة رأيت أمي، كانت تجلس على السرير تنظر إليّ صامته، مددت يدي نحوها، حاولت أن أصل إليها، لم تتحرك . تابعت الرقص حتى سقطت على الأرض، ما زلت أسمع أصواتاً بعيدة، لم أعد أرى سوى أشباح تراقص من حولي .

لحظة واختفى كل شيء، أغمضت عيني، تلاشت كل الصور، عم الظلام، صمت خفيف، لم يعد هناك ألم على الإطلاق، عندها فقط تحركت أمي وحمّلني بعيداً، بعيداً جداً جداً .

أوراق مبعثرة

اقتربت الطائرة من مطار الأقصر ، إنها المرة الأولى التي أزور فيها مصر وبالتحديد بيت والدي في الصعيد ، فتحتُ حقيبتى الصغيرة ، أخرجت مجموعة من الأوراق تحمل اسمي وثبتت نسبي لأبي المصري ، ومجموعة أخرى تثبت أن لي حقاً في أرض الصعيد البعيدة ، نظرت إلى الأوراق في يدي ، تساءلت : هل تستطيع هذه الأوراق أن تتحول إلى أموال؟!

بعد رحيل أمي ومرض أبي الشديد ، تغير الكثير بشكل تدريجي ؛ شح المال ، تنقلت في العمل من مكان إلى آخر ، كنت أحتاج إلى المال ، وحاجة الإنسان تجربته أحياناً على تقديم تنازلات كثيرة ، علمني أبي أنني مصرية تعيش في إيطاليا ، رغم المسافات البعيدة هناك رابط خفي بأخلاق الصعيد ، مرض أبي كان يتطلب المال ، بعث كل الذهب الذي كانت تمتلكه أمي ، احتفظت - فقط - بقلادة فيها صورتها ، وبعد دخول أبي المستشفى ، بدأت في بيع أثاث البيت .

يبدو أن أبي شعر بمعاناتي الشديدة ، رحل في هدوء ، كان رحيله

صدمة لي ، لقد كان كل شيء والآن لم يعد هناك أي شيء ، قررتُ السفر إلى الصعيد لدفن أبي ، قالها لي : لقد حرمت من مصر حياً ولا أريد أن أحرم منها ميتاً . . أريد أن يحتضني تراب الصعيد .

هبطت الطائرة، أنهيت كل الإجراءات ، استلمت الصندوق الضخم الذي يضم جثمان أبي ، كان الطريق إلى بيت العائلة طويلاً موحشاً ، البيت الذي لا أعرفه ولا أعرف فيه أحداً ، شعرت بالخوف والقلق ، انقبض قلبي حين وضع السائق الجثمان أمام باب البيت ، طلبت منه أن ينصرف ، لا أريده أن يرى مراسم الاستقبال الحزينة لي ! طرقت الباب ، خرج رجل يرتدي خيمة سوداء ، جلباباً شديد الاتساع ، تأملته كان يشبه أبي إلى حد بعيد ، سألتني باستغراب : من أنت ؟!

انعقد لساني ، تمكن الخوف مني ، فتحت حقيبتي الصغيرة أخرجت منها ورقة ميلادي ،ناولتها له وأنا أخبره من أكون ، كنت أرتدي ثوباً أسود ، كانت خصلات شعري الصفراء تكسر حدة هذا اللون القاسي ، شعرت بالعرق يبلل ثوبي وشعري ، لا أعرف رد الرجل ، ماذا سأفعل لو رفض استقبالي واستقبال أبي ، نظر إلى الصندوق ، دخل البيت وأغلق الباب خلفه !

لم أتحرك، قدمي التصقت بالأرض، كيف سأحمل أبي وأرحل،
وإلى أين سأرحل؟

أنا لا أعرف مكاناً آخر ولا طريقاً آخر، مرت الدقائق كأنها
ساعات طويلة ثقيلة، هل أخطأت العنوان؟! وبينما أنا أنظر حولي
انفتح الباب مرة أخرى، خرجت منه امرأة تتشح بالسواد، لم أر منها
إلا اللون الأسود ووجهاً أسمر تبدو عليه ملامح الزمن، سألتني
السؤال نفسه: من تكونين؟ لم تختلف إجابتي، نظرت إلى الصندوق
أمامي، كنت أتابعها بنظراتي، أخبرتها أن هذا الصندوق يضم جثمان
أبي، وأنه أراد أن يدفن في مصر، وأن هذا رجاؤه الأخير، فتح الرجل
الذي يشبه أبي الصندوق، نظرت المرأة إلى وجه أبي ثم أغلقت
الصندوق مرة أخرى، جلست على الأرض، احتضنت الصندوق
بكلتا يديها، بكت، رأيت دموعها: ولدي.. غادرت رجلاً وعدت
لنا جثة.

ملاحك لم تتغير.. أعرفك تماماً.. لم أنسك لحظة واحدة رغم
الألم الذي خلفته في قلبي وقلب أبيك حين اخترت الرحيل رافضاً كل
البدائل.. هجرت الصعيد.. قررت أن تتزوج بعيداً وحيداً.. أعوام
طويلة مضت.. كيف سأعرفها!؟

توقفت دموعها، نهضت، نظرت نحوي مرة أخرى، تأملتني :
لست منا . . البشرة السمراء والشعر المجعد والعيون السوداء لا تنجب
شعراً أصفر وعيوناً زرقاء وبشرة بيضاء . . هذه الملامح لا تنتمي لنا . .
هذه الملامح كانت اللعنة التي رحلت بولدي . . لا نعرف منك إلا
الاسم فقط، هذا الاسم اختار لنفسه الرحيل، خرج من هنا رجلاً
وعاد تحمله النساء .

كانت كلماتها شديدة القسوة، ولكنني عذرتها، دخلت البيت،
أغلقوا الباب مرة أخرى، باب البيت الذي لم أدخله . ، أخرجتُ
القلادة التي تحمل صورة أمي، والتي كانت مخفية خلف ثوبي
الأسود، وقبلتها .

لم أتحرك، لم يكن أمامي إلا أن أنتظر، مرت دقائق طويلة قبل أن
ينفتح الباب مرة أخرى، ظهر شاب أسمر، حلو الملامح، لا يرتدي
جلباباً، يرتدي ملابس حديثة، اقترب مني، مديده مصافحاً،
صافحته، شعرت بأنني لا أريد أن أترك يده، إنها أول يد تمتد إليّ في
هذا البيت، قدّم لي نفسه، يحمل لقب العائلة، لا أعرف لماذا بدأت
أشعر بالأمان، حمل جثمان أبي بمساعدة رجل آخر، وضعه في سيارة
كانت تقف أمام البيت، ركبت معه، عرفت أنهم سيدفنون أبي،
تنفست الصعداء .

حيث توقفت السيارة وجدت قبراً لأبي يحمل اسمه، كأنه ينتظر
قدومه، وضعوا الجثة تحت التراب، شعرت الآن فقط أن أبي قد
مات، عندما انتهوا بدأت أشعر بالراحة، تحقق لأبي ما أراد، نفذت
وصيته، ضمنت الحجر الذي كُتب عليه اسم أبي إلى صدري، قبّلته،
أعرف أنها مجرد أحجار وأن ما وراءها جسد قد مضى، ولكن هذا
القبر صار يضم أبي، لن يبق من الجسد سوى لوح حجري عليه
اسمه، تحتفظ به مقبرة العائلة على أرض الصعيد.

أخرجت الأوراق التي جئت بها من حقيبتى، ناولتها اليد التي
صافحتني، اليد التي امتدت إليّ بالسلام وأنا أتساءل: هل ستفعل
هذه الأوراق شيئاً؟

نظر فيها، حرّك رأسه بالنفي، كنت أعرف، رفضت أن أمسك
بالأوراق، تركتها بين يديه، تسمرت قدماي مرة أخرى، نظرت إلى
قبر أبي، تساءلت: قلت لي إن أرض الصعيد لا تتخلى عن
أبنائها، هل تخلت الصعيد عني؟

داعب الهواء الساخن شعري، حاول أن يجفف دموعي المنهمرة،
قبّلت نقش الاسم على الحجر، استنشقت الهواء، كان يحمل رائحة
أبي.

حمامة صيد

بعد ممارستي لرياضتي اليومية، رياضة المشي، شعرت ببعض الدفء كنتيجة طبيعية للمجهود الذي قمت به، خفت أن يتسرب الدفء من جسدي في هذا اليوم البارد، فلقد تغلبت البرودة على ضوء الشمس الدافئ، شعرت برغبة في تناول كوب من الشاي الساخن، لعله يعادل برودة الجو الشديدة فيغمرنني الدفء فترة أطول.

كان بعض أعضاء النادي يمارسون رياضة أخرى، رياضة الصيد، يصوبون بنادقهم في السماء ويطلقون أعيرة نارية لإصابة هدف متحرك، فيتساقط الحمام، وسقوط الحمام معناه إصابة الهدف، ولكن لا بد أن يسقط الهدف في حدود دائرة معينة حتى يحسب نقطة قيمة للرامي ونصراً له. شعرت بالألم، كنت أرى فتحة صغيرة في الأرض يخرج منها الحمام الواحدة تلو الأخرى، ويجاول جاهداً الفرار من الطلقات النارية إلى الحرية، لكن الطلقات ماهرة مثل الموت، نادراً ما تخطئ الهدف.

كنت أرى الحمام يخرج من الفتحة الأرضية مذعوراً، وكأنه يشعر

أنها رحلته الأخيرة، أصابني المنظر الذي تأملته جيداً للمرة الأولى
بشيء من الانزعاج، همست لعقلي: هل لابد من التجارب
والضحايا حتى تمنحنا الحياة الخبرة؟!!

نجحت حمامة بيضاء في أن تطير مسافة أكبر، وأن تعبر نطاق
الموت، لمحتها تبتعد وتختفي، تمكن الضيق مني، غادرت المكان دون
أن أنتهي من شرب الشاي، شعرت أنه لا يمنحني الدفاء المطلوب.

قررت أن استكمل رياضتي، فلقد كانت رياضة المشي تساعدني
كثيراً على استعادة نفسي، بدأت أتأمل الأشجار من حولي حتى
يفادرنني الضيق الذي أشعر به، فمَنظر الأشجار الخضراء يبعث في
نفسي ارتياحاً شديداً، في طريقي لمحت حمامة بيضاء ميتة يلتف حولها
مجموعة من الغربان السوداء، لابد أنها الحمامة التي تمكنت من
الهروب، الرصاص أصابها، قاومت، قطعت مسافة أكبر، ماتت
بعيداً دون أن تمنح قاتلها أي نقطة تحسب له، قتلها الرصاص فتمكن
الغربان منها، كانوا في الانتظار.

أغمضت عيني، كان مشهداً لا أرغب في رؤيته، أكره الموت كما
أكره الرحيل تماماً، كلاهما فراق.

هجرني زوجي لامرأة أخرى، أصابني رحيله بألم شديد، لم
يفكر في مشاعري لحظة واحدة، لم يقل - حتى - وداعاً، بكيت
وحيدة.

هاجر وحيدى مع زوجته إلى أوروبا، لا يفكر في العودة، يرأسني، لكنه يكتب دائماً في نهاية الرسالة، وداعاً، لم أقرأ سوى الوداع، لم يكتب إلى اللقاء، أعرف جيداً أنه لن يعود، أشتاق إليه كثيراً، ولكن الشوق لا يصل إليه .

حين رأيت الحمامة البيضاء تهرب، فرحت من أجلها، شعرت بأنها قد تعثر على بداية أخرى، وحين لمحتها ميتة أدركت أنها لم تبعد كثيراً عما هو مقدر لها، لم تعرف طعم الحرية طويلاً، عاشت وماتت حمامة صيد، أنا مثلها، سأموت وحيدة بعيداً عن قاتلي، لكنني لن أكون أبداً ضحية ينتظر الغربان سقوطها .

بدأت أتأمل الأشجار من جديد، إنها الأشجار نفسها، تغيب ثم تظهر مرة أخرى بالمعالم نفسها، لا شيء يتغير، كل الأشياء تتكرر خلال سيري في " التراك " الدائري .

شعرت بالبرودة، فقررت أن أتناول كوباً من الشاي، ولكن في مكان آخر .

ثقب في الجدار

اليوم تم طردي من عملي في المستشفى الخاص الذي يمتلكه طبيب مشهور، كنت أعرف تماماً ماذا فعلت، كنت أسرق بعض الأدوية التي في عهديتي، آخذ بعض الأقراص المنومة لا أكثر، لم تكن فعلتي تتناسب مع رد الفعل، غادرت عملي بشكل إجباري، كان كلام الطبيب معي حاداً وقاطعاً، قالها لي بلهجة أمرة: بره .

غادرتُ حجرة مكتبه، وما أن فتحت الباب حتى ظهرت من خلفه امرأة جميلة، لن أنسى ملامحها ولا عطرها الأخاذ، ولا ملابسها الأنيقة، كان من الطبيعي أن أسأل - رغم حزني وشرودي - عن هذه السيدة، عرفت أنها زوجة الطبيب .

سرتُ كثيراً قبل العودة إلى البيت، كان الطريق مزدحماً بالبشر، ولكنه أمامي فقط كان خالياً تماماً، كنت أشعر بوحدة شديدة، أنظر إلى الأرض، أبحث عن أي شيء قد تمنحه لي السماء، ولكن لا شيء . . . الأرض خالية .

عدت إلى غرفتي المتواضعة، ليس هناك ما أفعله، أفرغت جيوبي

من النقود، بحث في كل ملابسي عن أي أوراق نقدية شاردة، وضعت كل ما أملك - الآن - أمامي، كان من السهل أن أعرف أنني في أزمة شديدة.

مضت الساعات ثقيلة وأنا ما زلت في مكاني، لم يكن هناك أي حلول، طرحت كل شيء وأضفت الكثير، والنتيجة صفر، حاولت الهروب فغلبني النوم، بدأت ألتقط أصواتاً حادة في غرفتي، كنت أعتقد في البداية بأنني أحلم، ولكنني أدركت أنها حقيقة لا حلم، عندما فتحت عينيّ واكتشفت أن الأصوات ما زالت موجودة كأنها في غرفتي.

ثم بدأت ألمح بعض الدخان يتصاعد من أعلى دولا ب حجرتي، دخان رقيق يشبه دخان السجائر له رائحة حلوة، شعرت ببعض الخوف، لكنني أسرع نحو الدولا ب وحركته من مكانه، كان من السهل أن أدفعه، فهو متهالك ضعيف، من خلفه أبصرت أعلى الحائط ثقباً صغيراً تنبعث منه الأبخرة، ويصدر عنه الصوت.

أحضرت كرسيّاً وصعدت حيث الثقب، نظرت خلاله، كان من السهل أن أميز محتويات الحجره المجاورة لي رغم الظلام، كانت هناك أضواء خافتة تمنحني الرؤية.

استطعت بسهولة أن أحدد معالم حجرة جاري، هذا الجار الذي كنت أتجنبه، فهو مشعوذ مشهور في الحارة التي أسكنها، بل هو على رأي سكان الحارة " عم بركة " .

كان عم بركة يجلس وهو يتمتم بكلمات غير مفهومة، الغرفة كانت مليئة بالبخور ودقات الطبول، استطعت أن أميز السيدة التي كانت تتمايل مع الإيقاع، إنها صاحبة البيت الذي أسكنه أنا وجاري هذا، إنها السيدة التي تطالبني بالأجرة كل شهر وتهددني بالطرْد إذا تأخرت في السداد.

توقف الإيقاع وسبكن الصوت، انصرف الجميع وبقيت السيدة، كانت تتحدث بصوت مسموع: هل سيزول الصداع يا سيدنا؟
- إنشاء الله . . أراك غداً.

ناولته نقوداً لم أعرف عددها، انصرفت وبقي هو وحيداً.
هبطتُ، استلقيت على سريري، أخذت أفكر فيما رأيت حتى غلبني النوم مرة أخرى .

في مساء اليوم التالي وفي نفس الموعد تماماً، كانت صاحبة البيت تجلس مرة أخرى في حجرة عم بركة: مازال الصداع كما هو . . لم أنم البارحة . : الخيالات كانت تطاردني من كل صوب .

- هل تشربين الماء الذي أعطيته لك؟!

- نعم

- هل تغلقين نور الغرفة أثناء الليل!

- نعم

هنا صرخ عم بركة في وجهها بشيء من الحدة: لا . . لا تغلقي

النور مرة أخرى . . هذا هو السبب!

غادرت وهي تتمنى أن تكون هذه الليلة هي ليلتها الأخيرة مع

الصداع والأرق.

كان يراقب الموقف من خلال الثقب كل ليلة، نسي ما هو فيه،

سمع حكايات كثيرة، عرف الكثير عن أهل الحارة وغيرهم. عندما

هبط من على الكرسي، تذكر أن أوراقه النقدية بدأت في النفاد، بدأت

ترحل هنا وهناك.

فتح دولاب ملابسه، أخرج شريط الدواء الذي كان يتناوله لكي

ينام، أفرغ محتويات الشريط أمامه، بدأ في طحن الدواء حتى أصبح

بودرة بيضاء، أحضر برطماناً قديماً داكن اللون وصغير الحجم، وضع

فيه المسحوق.

في المساء سمع طرقاتاً على باب حجرته، كانت خادمة - صاحبة

البيت - ، فتح لها الباب ، دخلت مسرعة ، أحاطته بذراعيها وهي تردد بدلال : الأجرة .

قَبَّلها . . إنه يحبها ، فهي فتاة جميلة ، تحلم بأن يتزوجها ، وهو لا يمتلك حتى أن يحلم ، كل ما يعرفه أنه يحبها وأنه يلتقي بها من وقت لآخر ، إنها شديدة الكرم معه .

ناولها أجرة البيت والبرطمان الصغير : أريدك أن تقنعي سيدتك بأن تتناول كل يوم قبل أن تنام ملعقة صغيرة من هذا المسحوق . . هذا المسحوق سيكفيها ثلاثة أيام .

نظرت إليه بشيء من الحذر : هل تريد أن تقتلها ؟

حمقاء ، تفكير أحق محدود مثلها ، زغدها في كتفها : لا . . أنا أريد أن أعالج صداعها وأرقها الدائم .

- وكيف عرفت أنها تعاني من الصداع والأرق .

لم يخبرها بالحقيقة ، احتفظ بسرّه ، كان من السهل إقناعها بأي شيء ، غادرتُ بعد أن أخذت الأجرة وسمعت قصة لا يصدقها صبي صغير ولكنها صدقتها ، فمن يتكلم . . حبيب القلب ، لا يهم أن تقتنع بكلامه . . المهم أن تسمعه يتكلم .

مضت أيام ، غابت فيها السيدة عن زيارة عم بركة ، وبعد أسبوع

كامل كانت الخادمة تطرق بابه مرة أخرى، دخلت كالعادة بسرعة، طوقته بذراعيها، قَبَلته ثم بدأت في الكلام: أقنعت سيدتي بأني عثرت على رجل بركة آخر، تناولت المسحوق، عرفت أخيراً طعم النوم الهادئ.

كان يتابع كلامها بشغف، لا يريد أن يتوقف، ردد بسرعة: المهم.

تابعت: لقد نامت جيداً الفترة الماضية. . أخبرتني إنها ارتاحت تماماً لذلك الرجل الجديد. . وإنها تريد المزيد من المسحوق الأبيض. - ممتاز. . سأحضر لها المزيد، ولكن أخبرتها أن ثمن البرطمان الذي سوف يكفيها لمدة أسبوع آخر. . مائة جنيه. - حسناً.

غادرت وبعد قليل عادت بالنقود.

بدأت اللعبة، كان يعرف الأخبار من خلال ثقب الجدار، وما يستطيع أن يعالجه بالدواء يجد الطريق إلى صاحبه أو صاحبتة، بدأت الأموال تتدفق، أصبح ثقب الجدار وسيلة وصول، تغيرت حياته ولكنه لم يتزوج الخادمة رغم أنها كانت همزة الوصل بينه وبين أهل الحارة، كان يحبها، كانت كثقب الجدار وسيلة وصول، عوضها

بالنقود، أغدق عليها، طلب منها أن تبذل ملابس الخدم فهي لم تعد تليق بها، قبلت بالبديل، أصبحت تساعده من أجل المال وليس من أجل الزواج، استبدلت الزواج بحب لانهائية له.

كانت ليلته الأخيرة في هذه الغرفة المتواضعة، اكتفى بما حصل عليه، ملّ حياة التلصص، قرر أن يترك الحجرة وأن يرحل بعيداً عن هذه الحارة التي تحمل في جنباتها ذكريات يحبها وذكريات يكرهها.

سيحتفظ بالحجرة، سيداوم على دفع إيجارها، لن يسمح لسره أن يغادر جدرانها، رفع إيجارها عند صاحبة البيت، كانت هذه الحجرة " وش السعد " .

قبل أن يغادر قرر أن يلقي نظرة أخيرة على عم بركة، أحضر الكرسي، صعد، شاهد في حجرة المشعوذ امرأة شديدة الأناقة، لا تتناسب مطلقاً مع الحارة، استطاع أن يشم رائحة عطرها التي تغلبت على رائحة البخور، كانت امرأة جميلة تتحدث بصوت هادئ، شعر أنه رآها من قبل، دقق النظر، كادت عيناه أن تخترق الجدار كله، أسعفته الذاكرة، عرفها . . إنها زوجة الطبيب .

سمع شكواها، عرف أنها تعاني زواجاً فاشلاً لا تريده، لا بد أن يجد طريقاً لها، فطريقها لا يحتاج إلى أدوية مطحونة، إنها لعبة بعيدة

عن الدواء ، لابد أن يُسَخَّرَ كل ما يملك في سبيل الوصول لها ، فهذه
المرأة قد تكون بداية حياة جديدة ، حياة يحلم أن يكون جزءاً منها أو أن
تكون جزءاً منه .

العروسة

كانت الساعة تدق الواحدة ليلاً، صوت رتيب مكرر لا يتغير يملاً المكان، إنها ماكينة الخياطة، لقد أصبحت جزءاً من هذه الماكينة، جزءاً من هذا الجسد الحديدي الأصم.

توقفت فتوقف الصوت الرتيب، تعبت، أسندت رأسها إلى الماكينة، نظرت أمامها إلى الحائط حيث صورة زوجها الراحل، تنهدت، كان النفس عميقاً: تركتني وحدي.. الحمل ثقيل.. والحياة لا تتوقف.. ماضية لا تنظر خلفها.. تسرق القلوب والأبصار والعقول.. هذه الآلة تمنحني الأموال القليلة التي أسير بها في ركب الحياة اللاهث.

ولدان وبنت، من أجلهم تهون الدنيا، ويذبل الجمال، الولدان في المدرسة، البنت الصغيرة معها في البيت، الصغيرة تكره ماكينة الخياطة، تكره صوتها الرتيب، تعشق الرسم، تطلب الأوراق والأقلام من أخويها وتدفع ثمناً لها، دموعها الضعيفة، حتى يرق قلب الإخوة، الأم مسروقة بالعمل، لا تشارك الصغيرة اهتماماتها.

عشقت الصغيرة عروسةً ملقاةً ضمن مجموعة من الكراكيب في الشرفة المقابلة تماماً لشرفتهم، أصحاب هذه الدار على سفر لا يعودون إلا نادراً.

كانت العروسة محشورة ضمن الكراكيب ووجهها نحو شرفة الصغيرة تماماً، وكأنها تنظر إلى الشرفة كل الوقت بابتسامة ثابتة، أحببتها الصغيرة لأنها تنصت لها باهتمام، تعلقت بها، أصبحت العروسة - والتي لا تملك الصغيرة مثلها - صديقتها الوحيدة، تحكي لها أحلامها، تحدثها عن أمنياتها، ما تحب وتكره، تشاهد العروسة كل رسومات الصغيرة، تستقبل الرسم بابتسامة فتعرف الصغيرة أن الرسم جميل. رسمت الصغيرة العروسة الباسمة خلف القضبان، هكذا تراها، فهي مثلها محبوسة خلف قضبان الشرفة.

الأجمل أن العروسة كانت تنتظر الصغيرة كل الوقت لا تتحرك، حتى في أحلك الأوقات وأسوأ الظروف، بنظرتها الثابتة وابتسامتها الحلوة، دائماً منصتة، كأنها عاشقة للصغيرة الجميلة، كانت الصغيرة تلتقي العروسة في أحلامها، تشتري لها الملابس الجديدة وتمسح عن وجهها التراب والسواد.

فجأة.. . اختفت العروسة من الشرفة المقابلة، لم تجدها الصغيرة

في انتظارها هذا الصباح كالعادة، عاد أصحاب البيت، وذهبت العروسة بلا رجعة .

انهارت الصغيرة، بكت، كان البكاء مريراً، تلاشى طعم الصداقة العذب، غادرت الأم ماكينة الخياطة إلى حيث الصغيرة، حاولت أن تفهم، قضت اليوم كله مع الصغيرة تحاول أن تفهم، تحاول أن تعرف إلى أي مدى لم تتفهم الصغار، لم تشعر بهم، لم تشاركهم، الأولاد تشغلهم المدرسة وأصدقاء الدراسة، أما الصغيرة فليس لها سوى الجدران، هذه هي المساحة التي تتحرك داخلها، الشرفة وسيلة اتصالها الوحيدة بالعالم الخارجي، والعروسة هي كل العالم الخارجي وكل الأصدقاء وكل الأحلام.

نامت الصغيرة ليلاً باكياً، لم يكن هناك أي لعبة أو عروسة تحتضنها، إنها طفلة بلا ألعاب، عالم خالٍ من معالمة .

عادت الأم إلى ماكينة الخياطة، لاحظت بجوار صورة الزوج الراحل ورقة بيضاء، انتزعتها بحرص، إنها رسم بالقلم الرصاص لعروسة خلف القضبان، كيف لم تلاحظ هذه الأوراق المعلقة هنا وهناك، نظرت حولها، على كل حائط صورة صغيرة، ورقة بيضاء تحمل أحلاماً طفولية ورسماً مُعبِّراً، دمعت عيناها، آه . . يا

صغيرتي . . كم تجاهلتك ، تجاهلتك بأعوام عمرك الخمسة .

عادت إلى ماكينة الخياطة ، صنعت للصغيرة عروسة حلوة من بقايا الأقمشة ، عيونها أزرار زرقاء في مثل نقاء البحر . انتهت من صنع العروسة ، أمسكتها بين يديها ، قَبَّلَتْهَا ، احتضنتها ، لا تذكر آخر مرة قَبَّلَتْ فِيهَا أطفالها ، دخلتُ الغرفة حيث تنام الصغيرة ، وضعت العروسة بين ذراعيها ، ستكون أول شيء تراه في الصباح وأول جسر يربط بينها وبين الأم ، ستعبر عليه الصغيرة حتماً إلى عالم جديد .

الفهرس

- ٧ ١- الفازة
- ١٣ ٢- هوية امرأة
- ١٩ ٣- نبات الظل
- ٢٥ ٤- ورق برائحة الورد
- ٣١ ٥- كعب عال
- ٣٥ ٦- في الخامسة تماماً
- ٣٩ ٧- الرقم الأخير
- ٤٣ ٨- الوهم
- ٤٧ ٩- نجمة
- ٥٣ ١٠- العطر
- ٥٩ ١١- لحظات مسروقة
- ٦٥ ١٢- عملة واحدة
- ٧١ ١٣- كلمات
- ٧٥ ١٤- اللون الأبيض

٧٩ الرقصة الأخيرة
٨٥ أوراق مبعثرة
٩١ حمامة صيد
٩٥ ثقب في الجدار
١٠٣ العروسة

من إصدارات

سنايل للنشر والتوزيع

- أن تعيش لتحكي
السيرة الذاتية
للكاتبة الكولومبي : جابرييل جارثيا ماركيز
- حكاية إيرنديرا البريئة
رواية وقصص أخرى
للكاتبة الكولومبي: جابرييل جارثيا ماركيز
- ليالي القصف السعيدة
نصوص وقصص
للكاتبة العراقي: محسن الرملي
- ليلة شهر زاد الأخيرة
شعر
مقداد رحيم
- هاربون عبر نهر إفروس
شعر
حسين حبش
- السكسفون المجنح
شعر
سامي العامري
- ممر البستان
نصوص وحكايات
أحمد طه
- طلسمات مصرية
محمد حسين يونس
- جاتسبي العظيم
رواية
سكوت فيتزجرالد

- رجال وفيران
رواية
جون شتاينبك
- بلاد الثلوج
رواية
ياسوناري كاواباتا
- اقتل الطائر المغرد
رواية
هاربر لي

وتقرأ روائع لهؤلاء الكتاب

- كازنتزاكيس
- رسول حمزاتوف
- بابلو نيرودا
- أرثميلر
- دينو بوتزاتي
- اجناسيو سيلوني
- إيتالو كالفينو
- بورخيس
- جراهام جرين
- فرانتس كافكا
- هولدرلين
- فيركور
- وآخرين.

